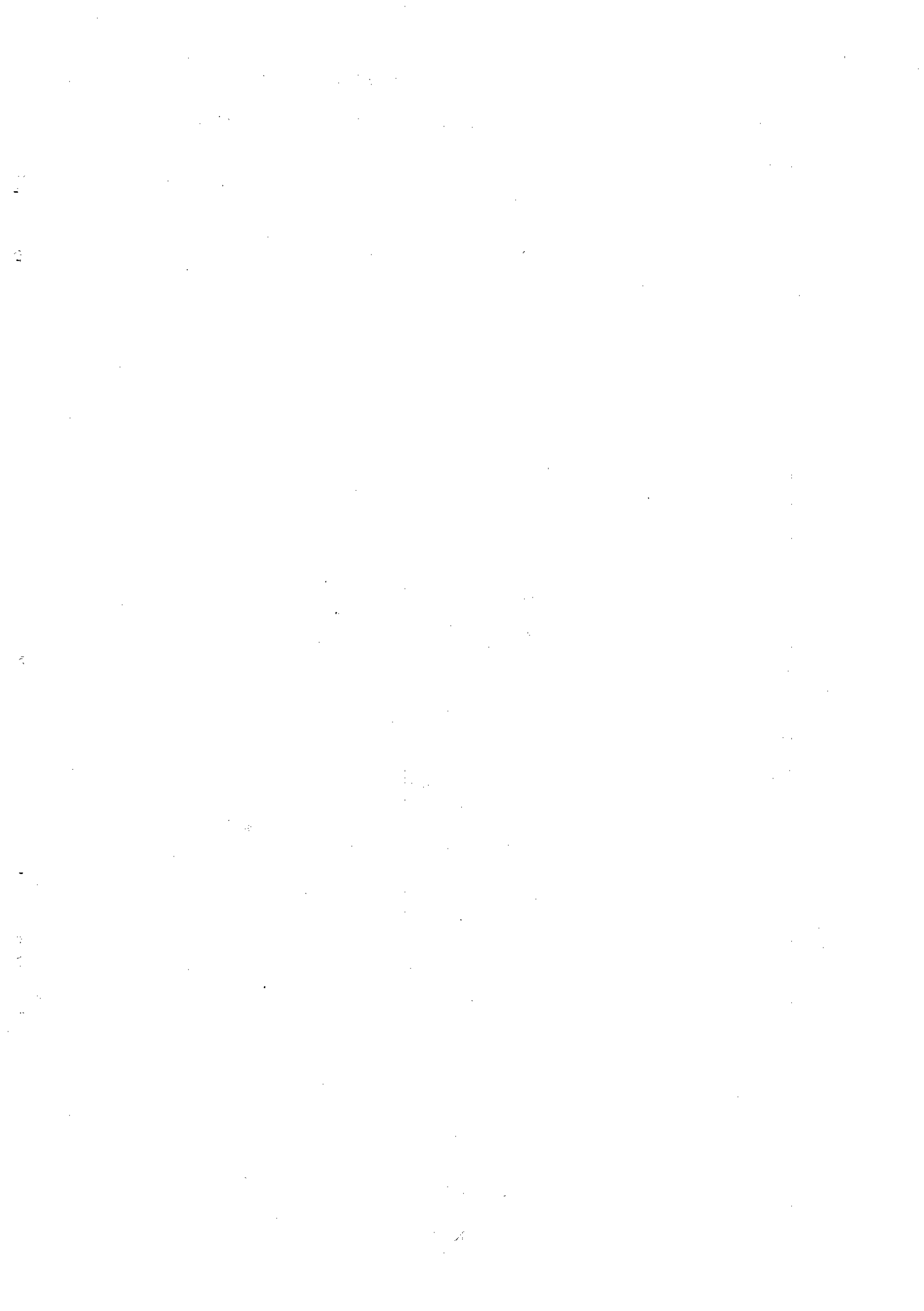
ابراهيم محمد سرسيق



الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

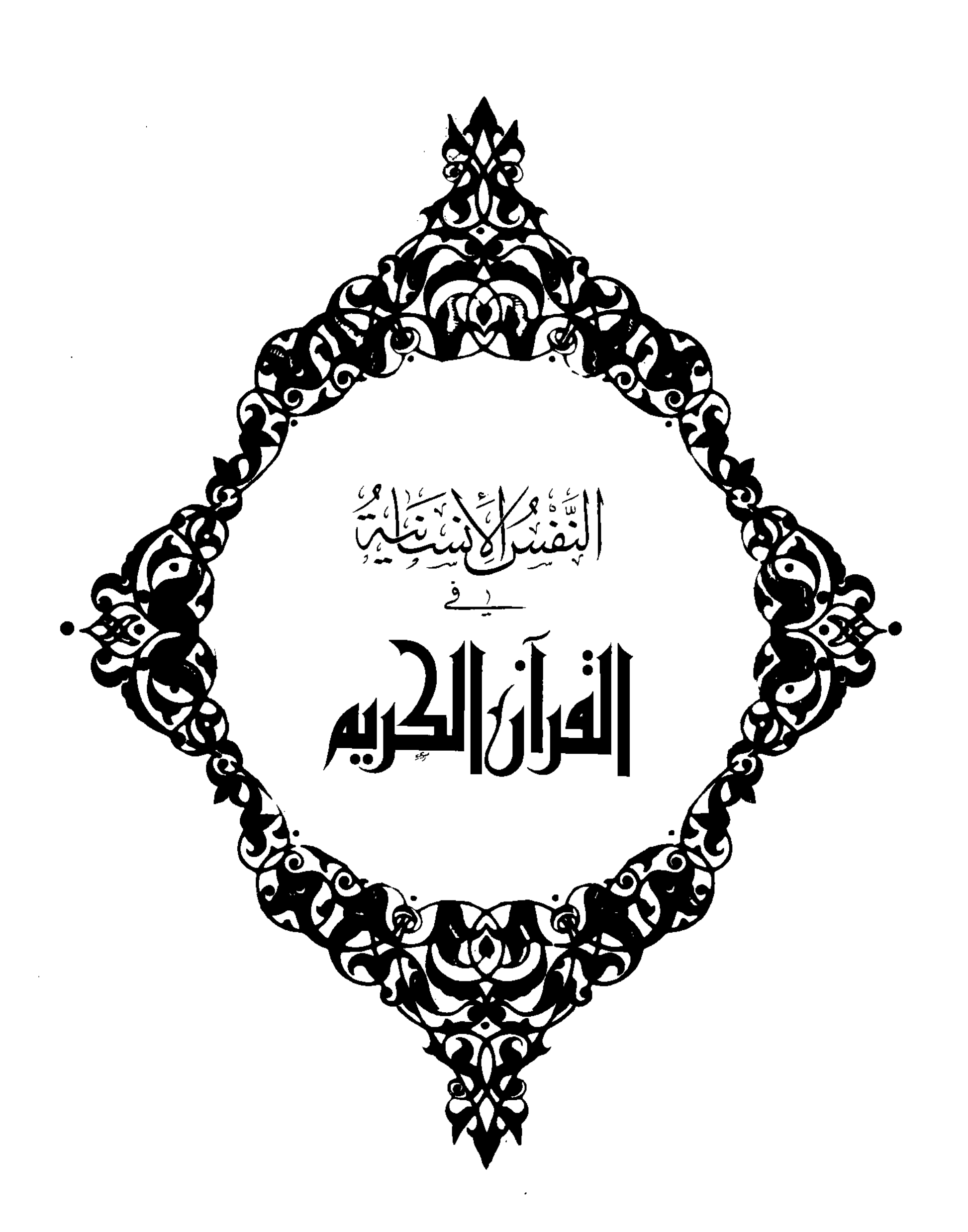





بسم الله الرحمن الرحيم



النـاشر
تهـامـة
جـدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤


النفس الأنسانية
في
القرآن الكريم



بين يدي البحث

(أ) تقدمة :

الحمد لله الذي خلق النفس وسوّاها ، وألهمها فجورها وتقواها ، سبحانه سبحانه سبحانه ، تخضع له جميع الأسباب والسنن — ولا يخضع لها ، وتعنو لعزته جميع الكائنات وهو غني عنها . .

وهو الله الملك الحق ، لا إله إلا هو . . تضاءلت العقول أن تدرك مداه ، وإليه يرجع الكل ولا رجوع لسواه ، ولا غاية للعبد إلاّ رحمته ورضاه .

اللهم اجعل الخوف منك أمني وإيماني ، واملأ بخشيتك قلبي وجوارحي ولساني ، واجعل توحيدك — ربي — هو غايتي ومقصدي ويقيني . . فلا أخاف إلا منك ، ولا أثق إلا بك ، ولا اعتمد إلا عليك ، ولا أسلم إلا لك ، ولا أرغب إلا فيك ، ولا أفوّض إلا إليك ، ولا أطلب إلا منك ، ولا أرضى إلا عنك ، ولا أذلّ إلا في طاعتك ، ولا أجاهد إلا في سبيلك .

ربّ قرّبني من كل ما يقرب إليك . .

وأبعدني عن كل ما يبعد عنك . .

وأذق روحي حلاوة نعيمك . .

وجنّب جوارحي مسّ نيرانك . .

وخذ بزمام قلبي إلى باب توحيدك . .

واجعلني وأنت خالقي من خيرة عبيدك . .

فلا أمان لى إلا بالعودة إلى حماك ، ولا راحة لي إلا بحلاوة رضاك ، يا أمان الخائفين ، يا ملاذ المستجيرين ، يا قابل التوب من العصاة والمذنبين ، يا منعماً على الخلائق أجمعين ، إليك وحدك المفر ، وعندك وحدك المستقر ، وأنت جالب الخير ودافع الضر ، فلا تقلّب — ربّ — في النار قلبا عبدك ، ولا تحرق عيناً سهرت في طاعتك ، ولا تعذب لساناً تعود الثناء عليك ، ولا تقطع قدماً خطا خطوات في عبادتك . .

فأنت خالق هذه النفس ، وواهب هذه الجوارح ، وبرحمتك تحركت الأعضاء واستوت الأجزاء وتكاثرت النعماء . فاجعل اللهم شكري على نعمائك بالطاعة لا بالمعصية ، وبالعرفان لا بالنكران ، وألهمني الانقياد إليك في سرّائي وضرّائي ، ووفقني إلى طاعتك في شدتي ورخائي ، واقبضني إليك بأصح عقيدة وأقوى يقين — وصلواتك اللهم وسلامك على عبدك ورسولك نبي الهدى و الرحمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم — واجعلنا اللهم من المهتدين بهديه ، والعاملين بشريعته ، والسائرين على طريقته إلى يوم الدين .

(ب) صُعوبة البحث في النفس البشريّة :

* هذه النفس البشرية . . .
* بحر لجيّ متلاطم : تتصافق أمواجه ويعبّ عبابه . .
* حصن حصين يستعصي على أبرع العقول وأبدع الأفكار . .

وأينما حاصرته تحاول اقتحامه — صدّتك عنه المناورات المحبوكة ، والحيل اللاشعورية ، وألوان الخداع النفسيّ الّتي تصوّر لك الماء وهو سراب ، وتزين لك الأمر ومن ورائه الحسرة والعذاب .

* لغز معقد متشابك ، وقُفْلٌ صُلبٌ متماسك . .

وغابة تضل في دروبها ومتاهاتها وشعابها أعتى النفوس دهاءً وأقواها إدراكاً ، ما سلكها عالم واستطاع أن يفوز منها بطائل : اللهم إلا ما جادت به هذه النفس نفسها . . من ثمرات أوقعتها عمداً في يد طالبيها من بين أغصان « شجرة المعرفة » . .

وكذب والله من زعم أنه عرف نفسه ؛ فإن من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وأيّنا يمكن أن يرقى هذا المرتقى الوعر ؟

لا يعلم خبايا هذه النفس ، بعيدة الأغوار ، عميقة الأسرار ، إلا من خلقها فسواها ، وألهمها فجورها وتقواها ، وأتقن صنعها ورعاها ، هو هو الذي لا تدرك أسرار عظمته ، ولا تحصى دلائل قدرته ، :

« وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا » (١) .

الذي يواجه النفس بحقائقها ، ويكشف النقاب عن أدق خفاياها ، ويُريها يوم القيامة أخفى ما أخفته عن أندادها ولداتها ، فكيف لا يدرك أعماقها وهو خالقها ومبديها ! ! وكيف لا يحيط سبحانه بأسرارها وهو

---

(١) سورة الفرقان آية (٢)

أعلم بها من صاحبها وراعيها . . ! !

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ؟ » (٢)

ومهما كان تحايل هذه النفس على إخفاء خباياها بالتكتم والمراوغة ، ومهما كان تجافيها عن الحقيقة بالتنصل والمدافعة — ومهما حاولت هذه النفس أن تبطن غير ما تظهر ، أو تخفي خلاف ما تعلن ، فإن ربك بها خبير وعليها قدير ، يكشف كل ما أكنّت ، ويبدي كل ما أخفت ، وسواء أكان قولها سرّاً أو جهراً فهو العليم بأمره ونهيه ، وهو المحيط بسرّه وجهره :

« وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ» (٣) .

ويقول رب العزة :

« وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ » (٤) .

هل النفس هي الروح ؟

جدير بنا أن نشير إلى أن القرآن الكريم قد نوّه بأن البحث في حقيقة الروح ليس من شأن الإنسان الذي لا يمكنه إدراك حقيقة نفسه ، وأنه مهما بذل من جهد في هذا الصدد فإنه جهد ضائع . . وخير له وأجدى أن يتتبع الظواهر السلوكيــة الصادرة عن النفـس . هذا ما أدركه الأوائــل من قول الحق تبارك وتعالى :

«قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » (٥) .

يقول الإمام الشوكاني في « فتح القدير » :

---

(٢) سورة الملك آية (١٤) (٣) سورة الملك آية (١٣)

(٤) سورة ابراهيم آية (٣٨) (٥) سورة الاسراء آية (٨٥)

(ذكر سبحانه سؤال السائلين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
– عن الروح – فقال :

« ويسألونك عن الروح »

وقد اختلف الناس في المسؤول عنه ، فقيل هو الروح المدبّر للبدن ، الذي تكون به حياته ، وبهذا قال أكثر المفسرين ، قال الفراء : الروح الذي يعيش به الإنسان – لم يخبر الله سبحانه به أحداً من خلقه ، ولم يعط علمه أحداً من عباده . فقال :

« قل الروح من أمر ربي » .

أي أنكم لا تعلمونه . . .

إلى أن يقول :

الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح ؛ لأن معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة أحواله – ثم أمره سبحانه أن يجيب على السائلين له عن الروح فقال :

« قل الروح من أمر ربي » :

من – بيانية ، والأمر : الشأن ، والإضافة للاختصاص ، أي هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأشياء التي لم يعلم بها عباده . وقيل معنى

« من أمر ربي » :

من وحيه وكلامه لا من كلام البشر . وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح ، المتكلفين لبيان ماهيته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ، ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام ، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا .

وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح – بلغت إلى ثمانية عشر مائة قول ، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع) (٦) .

ومع أن الروح قد وردت في الآية الشريفة على حقيقتها – إلا أن « الروح » قد وردت بمعنى « النفس » – في موضعين من القرآن الكريم :

الموضع الأول : في قوله تبارك وتعالى :

«ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا» (٧) .

أي الأرواح حين يأتي أجلها .

الموضع الثاني : في قوله تبارك وتعالى :

« وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ » (٨) .

أي أرواحكم .

مشروعية الدراسة نظراً وعملاً :

لما كانت الحواجز حصينة وقوية من حول النفس ؛ بحيث يتعذر بل يستحيل أن نفهم جوهرها ، وأن نخترق الحجب المضروبة من حولها ، كان الشيء الممكن أمامنا – وأمام جميع الباحثين في النفس الإنسانية بلا استثناء – أن نبحث الظواهر السلوكية الصادرة عن النفس ، وأن نحلل هذه الظواهر تحليلا علمياً يتناول أسبابها ودوافعها ، ويتناول الانفعالات

(٦) الامام الشوكانى (محمد بن على بن محمد ت ١٢٥٠ هـ) : فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير – ٣/٢٥٤ ط ٢ . الناشر (مصطفى البابى الحلبى) بمصر – ١٣٨٣ هـ(١٩٦٤) م

(٧) سورة الزمر آية (٤٢)

(٨) سورة الانعام (آية ٩٣)

المصاحبة لها ، ويتناول أيضاً آثارها على الإنسان من جهة ، وعلى البيئة النفسية التي يعيش فيها من جهة أخرى .

وهي دراسة مشروعة ومفيدة في وقت معاً :

فأما مشروعيتها :

فالآيات الشريفة قد تواردت على النظر في النفس وتأمل أحوالها ، من غضب ورضى، من قناعة وشره ، من كراهية ومحبة ، من ميل ونفور ، من حركة وسكون ، من نشاط وخمول . . إلى غير ذلك من الأساليب السلوكية التي لا حصر لها .

١ — في سورة الروم : يوجه القرآن الكريم نداءً قوياً للتفكر في النفس ، والتأمل في خصائصها البديعة التي تميزها عن غيرها من نفوس بقية المخلوقات ، فلنستمع إلى هذا النداء القرآني العظيم :

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ » (٩) .

يقول الزمخشري في الكشاف :

(معناه : أو لم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها . .

فتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكم — الدالة على التدبير دون الإهمال ، وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبّر أمرها على الإحسان إحسانا ، وعلى الإساءة مثلها ، حتى يعلموا

---

(٩) سورة الروم آية (٨)

عند ذلك : أن سائر الخلائق كذلك – أمرها جارٍ على الحكمة والتدبير ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت (١٠) .

٢ – في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، يربط الخالق العظيم بين الكون كله وبين النفس البشرية ، ويقرن بينهما بطريقة توحي بأن النفس والكون من حيث عظم الدلالة على القُدرة ، ومن حيث السعة والشمول ودقة الصنع – متكافئتان متوازيان .

الموضع الأول :

(أ) يقول الله تبارك وتعالى :

« وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » (١١)

فالقرآن الكريم يدعو في الآيتين دعوة مشتركة إلى التبصر في الكون وفي النفس ، لما فيهما من الآيات والدلائل العظيمة على قدرة الباري جل جلاله . وفي ذلك يقول الحافظ بن كثير في تفسيره :

(أي فيهما من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، وما قد جبلوا عليه من الإرادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات ، والسعادة والشقاوة ، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه . ولهذا قال عز وجل :

« وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » .

---

(١٠) أنظر تفسير الآية بكاملهافى تفسير الكشاف

(١١) سورة الذاريات (٢٠،٢١)

قال قتادة : من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق وليّنت مفاصله للعبادة) (١٢) .

وبدهي أن التبصر الوارد في الآية مقصود به التفكر الذهني ، والتأمل العقلي – لأنه لو كان المراد هو البصر أو النظر إلى الذات لكان الفعل متعدياً بإلى ، ولما تحقق المراد الأسني وهو الإيقان ببديع صنع الله تعالى في خلقه ، ولما تميز الإنسان على غيره ممن أوتي آلة الإبصار .

الموضع الثاني :

(ب) يقول الحق تباركت أسماؤه :

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » (١٣) .

إخبار من الباري جل علاه ، أن جلائل الآيات ستبدو واضحة متميزة في عالمين عظيمين من عوالم الله ، هما آفاق الكون الرحيبة – ودقائق النفس العجيبة . .

يقول الحافظ "ابن كثير" في شرح معنى الآية الشريفة :

(سنُظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلا من عند الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلائل خارجية – في الآفاق – من الفتوحات ، وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان .

قال مجاهد والحسن والسدي :

ودلائل في أنفسهم : قالوا وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم ، نصر الله فيها محمداً صلى الله عليه وسلم وصحبه ، وخذل

---

(١٢) الحافظ "ابن كثير" (أبو الفدا اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي) ت ٧٧٤ هـ : تفسير القرآن العظيم ٤/٢٣٥ · دار احياء الكتب العربية بالقاهرة (بدون تاريخ)

(١٣) سورة فصلت (٥٣)

فيها الباطل وحزبه . ويحتمل أن يكون المراد من ذلك : ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه ، من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى . وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك ، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعداها . (١٤)

الموضع الثالث :

(جـ) يقول الله تبارك وتعالى :

« مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا » (١٥) .

حديث قرآني عن المشركين الذين جهلوا كل شيء عن خلق السموات والأرض ، وعن خلق أنفسهم ، وما كانوا شركاء لله تعالى في تدبير العالم ! وإبراز هذين الأمرين معاً : يؤكد عظمة الخالق الأكبر الذي ليس كمثله شيء ، ويلفت الأنظار إلى قدرته التي لا تحد ، وعظيم صنعه في خلق السموات والأرض وخلق الأنفس بتدبير فائق لا يجارى .

وهكذا ، نرى في المواضع الثلاثة السابقة ارتباطاً واضحاً بين النفس والكون ، وتوجيهاً قرآنياً كريماً إلى الاعتبار بما في هذين العالمين من غرائب الآثار ودقائق الأسرار ، وهو توجيه جدير بالامتثال والطاعة ؛ لأنه توجيه كريم وحكيم من خالق الكون والنفس للعناية بدراسة الكون والنفس ، وكم فيهما ــ عند الدراســة والفهم ــ من عجائب وغرائب تحير العقل وتثير الانتباه وتجذب الإنسان إلى طاعة الخالق الأعظم تبارك وتعالى .

---

(١٤) تفسير القرآن العظيم : (مشار اليه) ٤/١٠٥
(١٥) سورة الكهف (٥١)

وحسب « النفس » شرفاً واتساعاً وإمتاعاً أن تكون مقرونة بالكون كله : على تعدد أجناسه ، وتنوع إنتاجه ، وكثرة مواده ، ودقة نظامه ، وعظمة صنعه ، ونفاسة كنوزه . .

ألا وإن الدعوة إلى تأمل هذين العالمين ، واكتناه أسرارهما ، والوقوف على بديع تكوينهما — لهي أمر يستوجب إطالة الفكر و إدامة النظر ، والاستفادة من كل ذلك بثمرات العقول المبتكرة ، ونتائج العلوم المختلفة . لأن في ذلك توسيعاً لدائرة الضوء التي تكتشف الكثير من الزوايا التي لم تكتشف من قبل ، وتعرفاً على الكثير من الخفايا التي لم تهتك أستارها حتى اليوم .

هذا ما عناه شهيد الإسلام « سيد قطب » حين قال :

(وإلى هذين المعرضين الهائلين تشير الآيات تلك الإشارة المختصرة ، التي تفتح هذين المعرضين على مصاريعهما لمن يريد أن يبصر ، و لمن يريد أن يستيقن ، ولمن يريد أن يملأ حياته حتى تفيض بالمتعة والمسرة ، وبالعبرة الحية ، وبالرصيد القيم من المعرفة الحقة التي ترفع القلوب وتضاعف الأعمار) .

والنصوص القرآنية معدة للعمل في جميع الأوساط والبيئات والظروف والأحوال ، قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس ولكل عقل ولكل إدراك ، كل بقدر ما يتقبل منها وما يطيق .

وكلما ارتقى الإنسان في المعرفة ، وانسعت مداركه وزادت معلوماته وكثرت تجاربه ، واطلع على أسرار الكون وأسرار النفس — ارتقى نصيبه وتضخم رصيده وتنوع زاده الذي يتلقاه من نصوص القرآن . هذا الكتاب الذي « لا تنفد عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد » كما يقول عنه النبي الذي تلقاه واستوعب أسراره وعاش بها ، يقوله عن تجربة حيّة وجدها في نفسه فعبّر عنها التعبير الأوفى صلوات الله وسلامه عليه .

– ثم يقول في تفسير قوله تعالى :

« وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون » :

وهذا المخلوق الإنساني هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض .

ولكنه يغفل عن قيمته وعن أسراره الكامنة في كيانه حين يغفل قلبه عن الإيمان ، وحين يحرم نعمة اليقين . إنه عجيبة في تكوينه الجسماني ، في أسرار هذا الجسد ، عجيبة في تكوينه الروحي : في أسرار هذه النفس . وهو عجيبة في ظاهره ، وعجيبة في باطنه ، وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

* * *

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير : تكوين أعضائه وتوزيعها ، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف ، عملية الهضم والامتصاص ، عملية التنفس والاحتراق ، دورة الدم في القلب والعروق ، الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم ، الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه ، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها وتجاوبها الكامل الدقيق ، وكل عجيبة من هذه تنطوي عنها عجائب ، وفي كل عضو ، وكل جزء من عضو ، خارقة تحير الألباب !

وأسرار روحه وطاقاتها المعلومة والمجهولة . .

إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكرها . .

هذه المعلومات والصور المختزنة : أين وكيف ؟

هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت وأين ، وكيف تستدعى فتجيء ؟

وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوى — فاما المجهول منها فهـو أكبر وأكثر . . تظهر آثاره بين الحين والحين في لمسات وإشراقات تدل على ما وراء الظاهر من المغيب المجهول .

ثم أسرار هذا الجنس في توالده وتوارثه — خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص ، وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين ، فأين تكمن هذه الخصائص في تلك الخلية الصغيرة ؟

وكيف تهتدي بذاتها إلى طريقها التاريخي الطويل — فتمثله أدق تمثيل وتنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب ؟

وإن وقفة أمام اللحظة التي يبدأ منها الجنين حياته على الأرض ، وهو ينفصل عن أمه ويعتمد على نفسه ، ويؤذن لقلبه ورئتيه بالحركة لبدء الحياة — إن وقفةً أمام هذه اللحظة ، وأمام هذه الحركة — لتدهش العقول وتحير الألباب . . وتغمر النفس بفيض من الدهشة وفيض من الإيمان لا يقف له قلب ولا يتماسك له وجدان !

وإن وقفة أخرى أمام اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم العبارات — بل أمام النطق ذاته — نطق هذا اللسان ، وتصويت تلك الحنجرة . . إنها عجيبة . . عجيبة تفقد وقعها لأنها تمرّ بنا كثيراً . . ولكن الوقوف أمامها لحظةً في تدبر — يجدد وقعها . إنها خارقة ، خارقة مذهلة تنبيء عن القدرة التي لا تكون إلا لله.

إلى أن يقول :

وإنها للحظات ممتعة حقاً :

تلك التي يقضيها الإنسان يتأمل وجوه الخلق وسماتهم وحركاتهم وعاداتهم ، بعين العابد السائح الذي يجول في متحف من إبداع أحسن الخالقين . .

فكيف بمن يقضي عمره كله في هذا المتاع الرفيع ؟

إن القرآن ـ يمثل هذه اللمسة ـ يخلق الإنسان خلقاً جديداً : بحسٍّ جديد ، ويمتعه بحياة جديدة ، ويهبه متاعاً لا نظير له في كل ما يتصوره في الأرض من متاع .

وعلى هذا النحو الرفيع من التأمل والإدراك ـ يريد القرآن للناس ، والإيمان هو الذي يمنح القلب البشري هذا الزاد ، وهو الذي يهيىء له هذا المتاع العلوي ـ وهو بعد في الأرض في عالم الطين) (١٦) اهـ

نسيان النفس عقوبة من الله

يقول الحق تبارك وتعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ » (١٧) .

وللإمام « ابن القيم » رحمه الله ـ نظرة تحليلية قوية على هذا النص الشريف ـ فهو يقول : (تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً ، وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده ونفسه فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام السائبة ، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه لبقائها على هداها الذي أعطاه إياها خالقها . وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق

---

(١٦) الشهيد سيد قطب : فى ظلال القرآن · الجزء السابع والعشرون ص ١٤ (١٧) سورة الحشر (١٨، ١٩)

عليها فنسي ربه ـ فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وتزكو به وتسعد به في معاشها ومعادها . قال تعالى :

« **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** » .

فغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات إلى مصالحه وكماله ، وما تزكو به نفسه وقلبه ، بل هو مشتت القلب مضيعه ، مفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلا) (١٨) .

ولكن . . كيف يكون نسيان الإنسان لربه ؟

وكيف يكون نسيان الإنسان لنفسه ؟

نجد الإجابة على السؤالين عند الإمام الشوكاني في قوله :

(نسوا الله أي تركوا أمره ، أو ما قدروه حق قدره ، أو لم يخافوه ، أو جميع ذلك . فأنساهم أنفسهم أي جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب ، ولم يكفوا عن المعاصي التي توقعهم فيه . قال سفيان : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم . وقيل نسوا الله في الرخاء فأنساهم أنفسهم في الشدائد) (١٩) .

* * *

(١٨) نقلا عن «العبادات فى الاسلام» للدكتور يوسف القرضاوى، دون تحديد مرجع الامام ابن القيم .

(١٩) الشوكانى : فتح القدير (مشار اليه) : ٥/٢٠٦



الفصل الأول

مع النفس في كتاب الله



مفهوم النفس في القرآن الكريم

في نحو (ثلاثمائة وسبعة وستين موضعاً) من القرآن الكريم — ورد الحديث صريحاً وواضحاً وجلياً عن النفس الإنسانية ! !

وليس حديث القرآن الكريم عن النفس بهذا الكمّ الهائل — حديثاً عاماً غير هام ، أو حديثاً كمالياً غير ضروري ، أو حديثاً عرضياً غير مقصود لذاته ، فالقرآن الكريم منزه عن ذلك كله ، لأنه — بنص القرآن الكريم نفسه — :

« كِتَـٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » (١)

وعموماً لقد كان المفهوم الأكثر وروداً في القرآن المجيد ، والذي دارت عليه المعاني في المقام الأول بين الآيات الشريفة — هو « الذات

(١) سورة هود ، آية رقم (١)

البشرية » – أي الإنسان بمجموع قواه الحسيّة والمعنوية – الإنسان باعتباره وحدة كاملة لا تتجزأ ولا تنفصم .

ثم يتلو ذلك من ناحية الإحصاء الكمّي :

ورود لفظ النفس بمعنى القوة المؤثرة في الإنسان . تلك القوة الداخلية ذات الأثر الواضح على التفكير ، وعلى السلوك ، وعلى العلاقات ، وعلى العادات . وهذا المعنى هو الذي عليه مدار بحثنا الآن .

وسنحاول الآن استعراض أهم المعاني التي جاء بها لفظ « النفس » في القرآن الكريم – على النحو الآتي : –

١ ـ النفس : بمعنى « الذات الالهية »

يقول الله تبارك وتعالى :

– « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ » .

سورة الأنعام (٥٤)

– « وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ » .

سورة آل عمران (٣٠)

– « يَٰمُوسَىٰ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى » .

سورة طه (٤١)

٢ ـ النفس : بمعنى « الانسان »

– « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ » .

سورة المائدة (٤٥)

– « لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » .

آخر سورة البقرة

– « وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » .
سورة النساء (٢٩)

– « وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا » .
سورة البقرة (٤٨)

– « أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ » .
سورة المائدة (٣٢)

٣ ـ النفس : بمعنى « أصل الخلقة »

– « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ »
سورة النساء (١)

– « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ » .
سورة الاعراف (١٨٩)

٤ ـ النفس : بمعنى « الروح »

– « ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » .
سورة الزمر (٤٢)

– « وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ » .
سورة الأنعام (٩٣)

٥ ـ النفس : بمعنى القوة الداخلية المؤثرة في الانسـان ، المنطوية على خباياه العميقة وأسراره الدقيقة ..

– « إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ » .
سورة النجم (٢٣)

- « وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ » .

سورة ق (١٦)

- « رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ » .

سورة الإسراء (٢٥)

- « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ » .

سورة الرعد (١١)

- « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ».

سورة النازعات (٤٠)

٦ ـ النفس : بمعنى أشخاص بأعيانهم

- « قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى » .

أي يوسف عليه السلام

سورة يوسف (٢٦)

- « كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ » .

أي يعقوب عليه السلام

سورة آل عمران (٩٣)

- « فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ » .

أي الرسول صلى الله عليه وسلم .

سورة الكهف (٦)

الفصل الثاني

الخصائص العامة لعلم النفس الإسلامي



هل هناك علم نفس إسلامي؟

هذا هو السؤال الذي يطرحه كثير من المشككين في هذا العصر ، الذين ولّوا وجوههم شطر الغرب يلتقطون آثاره ويتسقّطون أخباره ويجمعون ما تبقى من فتات موائده . وهم معذورون في سؤالهم هذا ، فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فلم يروا العلم إلا غربياً ، ولا اللباس إلا غربياً ، ولا الحضارة إلا غربية ، ولا الحياة إلا أوربية أو أمريكية . .

ونسوا التاريخ الحاضر والوسيط ، فما عرفوا ولا تذكروا أن هذه العلوم والفنون والصناعات ليست في حقيقتها إلا بضاعتنا رُدّت إلينا ، وكانت في الأصل لنا فما رعيناها حق رعايتها ، من هنا تهالكنا على حضارة الغرب ومبتكراته تهالك النساء على مستحضرات التجميل وأدوات الزينة والعطور ، لأننا لم نحافظ على ميراث آبائنا وحضارة أجدادنا كما يحافظ الرجال على تركات الرجال . .

حينئذ نَعَقَ ناعق من بين صفوفنا ، يرتدي ثيابنا وينطق بلساننا — ولكنه لا يحمل إيماننا في قلبه ، ولا يحفظ تراث ديننا في عقله ، ليقول في بلاهة عمياء ، وجهالة صارخة جهلاء هل هناك « علم نفس إسلامي » ؟

نعم . . هناك علم نفس إسلامي ، هناك علم نفس إسلامي ، هناك علم نفس إسلامي ، ويقول لك الشاعر :

ما ضرّ شمس الضحى في الأفق ساطعة
ألاّ يرى ضوءها من ليس ذا بصر

الخصائص العامة لعلم النّفس الإسلامي

المفهوم الاسلامى لمصطلح « العلم » :

يختلف المفهوم الإسلامي للعلم . عن المفهوم الأجنبي لهذا المصطلح . فالعلم عندنا هو القواعد الكلية المستدل عليها بالنصوص الثابتة من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة المباركة . فكل ما ورد به الدليل من هذين الأصلين فهو علم واجب الإذعان والتصديق — حتّى وإن غابت عنا حكمته ، فغياب الحكمة عن العقول لا ينفي وجودها في ذاتها . وحتّى لو امتدت الحقيقة العلمية الإيمانية إلى ما وراء الغيب فإن المسلم مطالب بالإيمان بالغيب ، بل إن الإيمان بالغيب ركن أساسيّ ركين في عقيدة المسلم . اقرأ إن شئت قول الحق تبارك وتعالى :

« الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون »(١).

هذا المفهوم الإسلامي للعلم تؤكده وتدعمه ثقة المخلوق بخالقه ، وترفعه إلى مستوى اليقين الديني الذي لا يشوبه الريب من بين يديه ولا من

(١) سورة البقرة آية (٣)

خلفه ، لأنه صادر من عند الله الذي خلق الإنسان فسواه فعدله ، في أي صورة ما شاء ركبه .

أما المفهوم الغربي لكلمة (علم) فهو مفهوم مادي حسيّ تجريبي مشاهد ، يخضع للقياس والتجريب ، ويقبل فرض الفروض التي قد تصبح أو لا تصبح فيما بعدُ نظريات مقررة .

والعجيب أن هذه النظريات العلمية لدى الأوربيين — ليست ، باعتراف واضعيها أنفسهم — مضطردة الثبات والصدق ، وقد تنقضها نظرية علمية أُخرى في عصر آخر أو منطقة مكانيّة معاصرة أُخرى ، وبدهي أن ما نعنيه هنا بعلم النفس الإسلامي — هو تلك النظرات أو النظريات — على اختلاف المضمون فيها — كما وردت في النصوص الشريفة أو استنبطها المفسرون وشراح الأحاديث النبوية الصحيحة ، وكما وقعت في كتابات العلماء الأجلاء الذين يعتدّ بهم وبكتاباتهم في المجال السلوكي .

وحين يتأكد اقتناعنا بهذا المصدر المعرفي لنظرات أو نظريات السلوك الإنساني — يمكن القول مبدئياً ، ودون أدنى تردد : « بوجود علم نفس إسلامي » .

وبحسبنا هنا أن نذكر شهادة حق لأحد المتخصصين في هذا الموضوع ، وهو الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني :

(إن القرآن وهو كتاب المسلمين — حوى تفصيلا لمعظم الأصول النفسية التي يصدر عنها سلوك الإنسان) .

— إبتداءً من البحث في النفس : ما هي ؟ وما أصلها ؟ وما مصيرها ؟

— إلى كثير من أحوالها التي تدفع المرء إلى المعيشة في هذه الحياة الدنيا :

(أ) مثل الدافع إلى طلب الطعام والولد والمال والزينة والرياسة .

(ب) كما صور ألواناً من الخوالج النفسية والعواطف البشرية كالحقد و الغيرة والحسد والوسوسة وغير ذلك .

– فلم يكن المسلمون بحاجة إلى كتاب في علم النفس وبين أيديهم كتاب الله تعالى – يحفظونه في صدورهم ، ويتلون آياته آناء الليل وأطراف النهار .

– كما لم يكونوا بحاجة إلى تصنيف كتاب في علم الأخلاق للسبب نفسه ، وهو أن القرآن في أساسه كتاب يهدي الناس إلى الطريق المستقيم)(٢) .

فهذه شهادة لا شك في صحتها من متخصص خبير في علم النفس ونظرياته المختلفة . وهي شهادة تؤكد وجود نظريات سيكلوجية كامنة في الكثير من آيات الكتاب الكريم والسنة المطهرة . كما تؤكد أيضاً – بطريقة ضمنية – أن التراث الإسلامي في حاجة ماسة وملموسة إلى باحثين أكْفاء – بتسكين الكاف – يقومون بالبحث والتنقيب عن الكنوز المطمورة في حنايا هذا التراث العظيم ، ليعودوا لنا بالدّر والجوهر من خبايا هذا النور السماوي من كتاب وسنة .

وبهذا المفهوم الذي أوردناه « لعلم النفس الإسلامي » – يتضح أن هناك فروقاً أساسية بينه وبين أي اتجاه آخر في العلوم السيكلوجية كما يتضح من العرض الآتي :

أولا : يختلف علم النفس الإسلامي في جوهره ومضمونه – مع الاتجاه المادي الصرف – الذي قامت على أساسه مباحث علم النفس الحديث . ذلك الاتجاه المادي الذي افترض خطأً أن الإنسان سيد نفسه . . وأنكر

---

(٢) د.أحمد فؤاد الاهواني : مقدمة كتاب (الدراسات النفسية عند المسلمين) للدكتور عبد الكريم العثمان

وجود أية قوى غيبية توجه الإنسان وتقوده وترشده إلى ما يحبيه . . بحجة أن هذه القوى الغيبية لا يمكن إدراكها بالوسائل العلمية من تجربة وقياس وغيرهما .

والإسلام ينكر هذه النزعة ، لأن الإيمان بالغيب أصل من أصول الاعتقاد الصحيح ، وقد جاء هذا الأصل صريحاً في معرض الحديث القرآني عن صفات المؤمنين .

بل إن هناك حقيقة مهمة بهذا الصدد :

وهو أن الغيبيات إذا تمكن الإيمان بها من نفس المؤمن الصادق ارتقت به إلى الإيمان الحق . وهو الدرجة العليا أو الإيمان « القمة » . وإليها يشير قول الحق تبارك وتعالى :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » (٣) .

إن العلم القائم على الأساس المادي وحده – يعطي كل الأهمية للحواس باعتبارها النوافذ الأولى للمعرفة . ولم يقل أحد أبداً بأن ثقتنا بحواسنا قد أوفت على الغاية ، وما زال الإنسان يتلافى خداع الحواس وخطأها اليومي المتكرر بصورة مألوفة ومعروفة .

ثانيا : يتميز علم النفس الإسلامي بأن نظرياته في النفس البشرية ، أو في السلوك الإنساني الصادر عن النفس البشرية – إنما هي مستقاة من خالق هذه النفس ، المحيط بأسرارها وخباياها ، ومصدر هذه النظريات

(٣) سورة الانفال (٢،٣،٤)

هو كتاب الله الكريم ، ثم ما جاء على لسان نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه .

أما علم النفس الأوربي — فقد أمعن كثيراً في استقاء نظرياته من التجارب التي أجراها العلماء على الحيوانات كالقردة أو الكلاب أو الديكة أو غيرها .

ثم إنهم قد عمّموا نتائج هذه التجارب على المظاهر المختلفة للسلوك الإنساني . وزعموا أنها نتائج يمكن التنبؤ من خلالها بما يمكن أن يستحدثه الفرد من سلوك .

والحقيقة أنه لا يمكن التسليم على الإطلاق — بأن النفس الإنسانية — تلك القارة المجهولة ! — يمكن أن تخضع لأي قانون يحكمها أو يتحكم فيها ، فهي تستعصي على أي نظام ثابت من النظريات أو النتائج التجريبيّة — هذه واحدة .

ومن ناحية أخرى وليست أخيرة : الكل يعلم علماً يقينياً جازماً ، أنه لا يحيط بأسرار النفس إلا خالقها . وليس ثمة مصدر يقيني لمعرفة خبايا نفس الإنسان إلا القرآن ، ثم ما ورد تفصيلا وتفسيراً لآيات القرآن الكريم من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، يضاف إلى ذلك ما استخلصته بصائر ذوي التمييز من آيات الكتاب العزيز ، وما أفاضه الله على أهل العلم من استنباطاتٍ دقيقة ، وفوائد لطيفة عميقة .

أما إخضاع النفس الإنسانية — وهي عالم — بفتح اللام — قائم برأسه ، وكونٌ مستقل بنفسه — لقوانين ثابتة جامدة ، كقانون الحتمية النفسية ، أو قانون الغرائز ، أو غيرهما — فقد تمردت النفس حقيقة على ذلك كله — وذلك بشهادة المتخصصين الكبار في علم النفس كما سيأتي .

ثالثا : يتميز علم النفس الإسلامي بأنه يعترف للإنسان بذاتيته الّتي تميزه وترقى به عن سائر الجمادات الأخرى ، ومن عناصر هذه الذاتية ما يتمتع به الإنسان من مشاعر وأحاسيس ورغبات ، وما يحفظ عليه حرية الكسب والاكتساب ، وبذلك تميز علم النفس الإسلامي عن علم النفس الحديث ، الذي يعامل الإنسان العاقل المفكر كما يعامل قطعة من الحجر . .

وفي ذلك يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني : (. . فإن الإنسان تختلف حاله عن حال هذه الكائنات ، لأنه إلى جانب سلوكه الظاهر ، المتفق مع سائر الكائنات الطبيعية – يشعر بالخواطر والخوالج التي تجري في باطنه ، أي أنه يشعر بذاته باعتبار أنها مصدر لهذه الحركات وهذا السلوك الخارجي . وهو يستطيع أن يصور لنا شعوره ، وأن يحلل لنا باطنه ، وأن يميز بين دوافعه واتجاهاته وميوله وعواطفه وغير ذلك) (٤) .

وفي الحقيقة إن هذه النظرة الجامدة للإنسان الديناميكي الحيّ المتحرك النشط ، نظرة تجافي الواقع تماماً . ومثلها النظرة التي اعتبرت الإنسان ذرة في الهواء ، أو قطرة في الماء – فجمعت بينه وبين عشرات بل مئات من الناس في تجارب معملية جماعية ، وأسقطت خلال تجاربها تلك : خصائص الشخصية الفردية ، وما يتميز به كل إنسان على الآخر من سمات واتجاهات . . الخ . .

فعل علماء النفس التجريبي ذلك بالبشر ، وكأنهم فئران تجارب ، ثم خرجوا بمجموعة من النتائج إن صدقت على البعض فهي لا تصدق على الكل ، وإن صحّت في بعض الأحوال فهي لا تصح في بعضها الآخر – ومن أجل ذلك تستمر التجارب إلى ما لا نهاية – وبعضها ينقض بعضها الآخر .

---

(٤) د.أحمد فؤاد الاهوانى: المرجع السابق ص ٤

وما يمكن أن يستمر هذا – تحت اسم العلم . لتؤخذ منه قوانين تتّصف – في العادة – بالصدق ، والثبات ، والموضوعية !

ومع ذلك يصرون على وصفها « بالعلمية » ! رغم أن أصلها غير ثابت ، وتطبيقها غير مضطرد . وصدق الله العظيم :

« فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ » (٥) .

ولقد وصف الله تعالى أولئك الذين انصرفوا عن العلم الحق إلى بهارج الحياة وزخرفها – بالعمي الكامل ، عمى البصيرة الذي لا يكاد صاحبه يتلمس طريقه إلى سعادة الدارين ، فلنقرأ قوله الحق في كتابه المبين :

« أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ » (٦) .

ويصف الله تعالى أخصّ خصائص العلم – في مفهومه الإسلامي – بأنه يجب أن يتجرد من شائبة الأهواء ، ويجب أن يتنزه عن العواطف والانفعالات ، ويجب أن يبقى كما أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض ، ويعلم ما تبدون وما تكتمون .

« وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ » (٧) .

ثم نشير إشارة ذات مغزى جليل – إلى ضآلة ما وصل إليه علم الإنسان في هذا العصر والعصور السابقة عليه ، والعصور اللاحقة له – مهما أوغل

---

(٥) سورة آل عمران آية (٧)   (٦) سورة الرعد ، آية (١٩)
(٧) سورة الرعد ، آية (٣٧)

العقل الإنساني في فنون العلم ، ومهما تنقل بصواريخه وسفنه الفضائية في طبقات الجو العليا — فذلك كله بنصّ القرآن المجيد قليل قليل :

« وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » (٨) .

رابعا : يتميز علم النفس الإسلامي بالنظرة الواقعية للنفس الإنسانية في علاقتها بغيرها من النفوس ، وفي علاقتها بالقوى المؤثرة فيها من عناصر البيئة المختلفة .

فلم يقل علم النفس الإسلامي كما قالت المدرسة التحليلية الفرويدية من أن النفس الإنسانية شريرة بالنظرة ، تنقاد لغرائزها الأولى انقياداً أعمي بلا هدف وبلا بصيرة ، وتستهدف إرواء شهواتها الدنيا بلا ضابط وبلا رادع وبلا حدّ .

ولكن تميز علم النفس الإسلامي بتحديد اتجاه النفس في طريقين : هما طريق الخير والشر : وان النفس تجاهد في اختيار الطريق الذي تساعدها عليه عوامل النشأة والتربية — دون أن تكون في أصل خلقتها شريرة أو عدوانية .

ومصدر هذه النظرة السامية إلى النفس الإنسانية هو ربّ هذه النفس وخالقها سبحانه وتعالى . فهو القائل في كتابه المجيد :

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا » (٩)

وهو القائل :

« إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » (١٠) .

---

(٨) سورة الاسراء ، آية (٨٥)　　(٩) سوة الشمس (٧،١٠)

(١٠) سورة الانسان آية (٣)

ونتيجة لهذا الخطأ الشنيع في فهم الطبيعة الأساسية للنفس البشرية ، (رأينا الطب النفسيّ ينتكس ويرتد إلى العلاج الماديّ بالمسكنات والمهدئات والمخدرات والمنومات ، وهو اعتراف بالعجز والفشل ، وهروب من المشكلة بالنوم عنها . وكيف لا تنتهي « الفرويدية » إلى الفشل وهي القائلة باستحالة تغيير النفس وتبديلها ، وبأن النفس تتشكل في سنوات الطفولة الأولى ثم تصبح قدراً لصاحبها لا خلاص منه .

وماذا أبقت لنا هذه النظرة سوى العلاج بالمسكنات والمراهم الخارجية ، لقد انتهي علم النفس الحديث إلى الفشل لأن منطلقاته معظمها خاطيء ، وكان أكبر أخطاء هذا العلم أنه ليس علماً . . !!) (١١) .

خامسا : يتميز علم النفس الإسلامي بالوضوح التام في فهم الظواهر النفسية ، وتحليل ألوان المسالك البشرية ، وعلاج الأمراض النفسية في ضوء الوصايا الإلهية وعلى نحو ما جاء في السيرة النبوية .

وبذلك لم يخُضْ علم النفس الإسلامي فيما خاض فيه الصوفية من تخرصات وأوهام ، وما ابتدعوه من طقوس ومقامات !! وما استحدثوه من أساطير وخزعبلات !!

لقد بذل الصوفية أقصى جهودهم فيما أسموه (علم السلوك) ؛ قاصدين بذلك مرور المتصوف في درجات ومقامات وأحوال لا يعلم منتهاها إلا الله ، هي أشبه ما تكون ببحر لجيّ : ظلمات بعضها فوق بعض ، لا تنتهي بالسالك في أظلم الممالك إلا وقد صار في زعمهم قطباً !

لقد تركوا كل الحقائق ، وتمرغوا في حمأة كل الأباطيل .

تركوا كل شيء عن النفس ، واشتغلوا بعلاقة المريد بالشيخ ، وجلوسه

---

(١١) د·مصطفى محمـــود :صحيفة «أخبار اليـــوم القاهرية» (١٩٧٦/٧/٣١ م)

بين يديه كالميت بين يدي غاسله . ولم يشغلهم من الظواهر النفسية إلا ما يعترض الصوفي من أحوال البسط والقبض ، والهيام والوجد ، والخلوة والجلوة ، والحلقة والخيمة . . الخ . .

ومثل هذه التخرصات الباطلة لا أصل لها في الإسلام . ولا ينبغي أن تضيع جهود العلماء وطلاب العلم في مثل هذه الغثاثات التي لا تفيد المسلم في دينه ولا دنياه ، بل إنها تشغله وتضيع أثمن وقته في فكّ رموز أشبه ما تكون بالطقوس السرية في المذاهب الرافضة المرفوضة .

ولقد شهد المؤرخون أن المتصوفة كانوا براذع للإستعمار في معظم البلاد التي اكتسحها الاستعمار . وكذلك شأن كل نحلة ما رقة عن الدين الصحيح : تبيع الدين بالدنيا ، وتؤثر العاجلة على الآجلة ، وتشتري بآيات الله ثمناً قليلا ، وتفسد عقيدتها لقاء عرض الحياة الدنيا .

إنه الدور الحقير . . الذي تلعبه الآن القاديانية والبهائية وغيرهما — في مناطق كثيرة ومختلفة من العالم .

* * *



الفصل الثالث

نماذج النفس الإنسانية في القرآن الكريم

١ ـ النفس الامارة بالسوء :

(تمهيد ـ تفسير آية النفس الامارة ـ شيوع النفس الامارة ـ مغزى الاستثناء : الا ما رحم ربى ـ الاستعاذة من هذه النفس ـ علاج النفس الامارة بالسوء) •

٢ ـ النفس اللوامة :

(تفسير آية النفس اللوامة ـ طريقان لتوجيه اللوم ، فما هما ؟ هل يمكن أن تكون اللوامة صفة ذم ؟ ـ هل اللوامة هى الملهمة ؟ ـ ما معنى «ألهمها فجورها وتقواها» ؟ ـ هل تلوم النفس اللوامة الآخرين أيضا ؟ ـ هل أقسم الله بالقيامة واللوامة ؟ ـ سر اقتران اللوامة بيوم القيامة) •

٣ ـ النفس المطمئنة :

(تفسير آية النفس المطمئنة ـ خصائص هذه النفس ـ اسباب اطمئنانها ـ أوصافها الاربعة فى سورة الفجر ـ ما سر توجيه النداء الى النفس المطمئنة ؟) •

٤ ـ دراسة مقارنة للنفوس الثلاثة فى القرآن :

(هل هى نفوس ثلاثة أو أحوال ثلاثة تنتاب كل انسان ؟ • الرد على من قال : انها نفوس خمسة ـ راى جديد فى النفوس الثلاثة : مناقشة العقاد ـ سر المبالغة فى «الامارة» و «اللوامة» دون «المطمئنة» ـ مقارنة دقيقة بين الامارة والمطمئنة •

النفس الأمارة بالسوء

قال الله تبارك وتعالى :

« وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (١) .

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة نوعاً من أنواع النفس يعتبر أدنى الأنواع المعروفة للنفس البشرية ، وأبعدها عن رحمة الله تعالى ورضوانه ـ ذلك هو النفس الأمارة بالسوء .

ما سمات النفس الأمارة بالسوء ؟

هي التي أطماعها في الدنيا لا تنتهي ، وشهواتها لا تقف عند حدّ ، وانهماكها في تمني الأماني والتطلع إلى الشهوات لا يعرف الشبع أو الري ،

(١) سورة يوسف آية (٥٣) .

فما يردعها من أجل ذلك رادع عن أن تأمر صاحبها بالسوء ، وتدفعه إلى الشر ، أمراً دائباً ودائماً لا يعرف الكلل أو الملل ، لأنها نفس موصولة الحبال بالملذات والأهواء — بل هي غارقة فيها حتّى الثمالة . .

وهي تسبب لصاحبها — مع التعرض للعقاب — الحرمان من الثواب وإضاعة زهرة الشباب ، والرجوع بخزي الحاضر والمآب . ويقول الفخر الرازي في تفسير الآية :

(. . وكونها أمّارة بالسوء يفيد المبالغة .

والسبب فيه : أن النفس من أول حدوثها قد أَلِفتْ المحسوسات والتذتْ بها وعشقتها ، فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه — فذلك لا يحصل إلا نادراً في حق الواحد فالواحد.

وذلك الواحد إنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طوال عمره في الأوقات النادرة . فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسداني ، وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادراً — لا جرم حكم عليها بكونها أمّارة بالسوء) .

والمبالغة المفهومة من وصف النفس « بالأمّارة » — تأتي من كون هذا الوصف جاء على وزن صيغة من صيغ المبالغة المعروفة ، التي تدلّ في اللغة الغربية على كثرة وقوع الفعل . وهي التي أورد « ابن مالك الأندلسي » الصيغ القياسية لها في قوله في « الألفية » — وهي أرجوزة في النحو العربي من ألف بيت :

فعّال أو مفعالٌ أو فعـــولُ   في كثرةٍ عن فاعلٍ بديلُ

ولو كان المقصود هو مجرد الوصف العاديّ بالأمر بالسوء — لكانت العبارة — في غير القرآن الكريم — (إن النفس لآمرة بالسوء) — غير

أن النص القرآني الشريف يشير إلى طبيعة هذه النفس وهي أنها كثيرة الوسوسة ، دائمة عليها مستمرة فيها لا تتوقف عنها . من هنا كانت خطورة هذه النفس في أنها تستمريء الشر وتجد تحقيقاً لشهوتها فيه ، فيكون صاحبها ميالا إلى حوك المؤامرات ، وتدبير الدسائس والفتن ، وتهديد الأبرياء ، والتعدي على انضعفاء ، وسلب الأموال ، وإزعاج الآمنين ، ومناصرة المجرمين ، وهتك حرمات الناس ، ورمْي المحصنات الغافلات . وهو لا ينفك يدبر المؤامرة تلو المؤامرة ، ويقفّي على الجريمة بالجريمة لأن جرثومة الشر في دمه تعمل عملها بلا انقطاع .

وهنا سؤال مهم :

هل الآية السابقة ـ حكاية عن نبي الله يوسف عليه السلام . . أو حكاية عن امرأة العزيز ؟

ـ يقول الإمام الشوكاني في « فتح القدير » :

(إن كان من كلام يوسف : فهو من باب الهضم للنفس وعدم التزكية بها ، مع أنه قد علم هو وغيره من الناس أنه بريء ، وظهر ذلك ظهور الشمس ، وأقرت به المرأة التي ادعت عليه الباطل ، ونزّهته النسوة اللاتي قطعن أيديهن .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

« إنّا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » .

سورة الإنسان (٣)

في هذه الآية المباركة من كتاب الله تعالى :

يوضح الله سبحانه للناس أنه رسم لهم الطريق وحدد لهم معالمه ، وبصّرهم بمواقع الخير والشر فيه ـ وهم بعد ذلك يختارون لأنفسهم ثم

يحاسبون بنتائج اختيارهم ، كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه . وفي نهايته يقول صلى الله عليه وسلم لكعب بن عجرة :

(يا كعب . . الناس غاديان : فمبتاعٌ نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها) .

ويؤيده ما رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فموبقها أو معتقها) .

ويقول الله سبحانه :

« **وهديناه النجدين** » .

سورة البلد (١٠)

أورد الحافظ "ابن كثير" في تفسيره أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقــول :

(يا أيها الناس ، إنهما النجدان : نجد الخير ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير) .

والتعبير بالنجدين له دلالة عميقة موحية ، وذلك أن النجد في لغة العرب معناه : ما ارتفع من الأرض . وبه سمّى الموضع المعروف في شبه الجزيرة العربية لإشرافه على ما حوله من الأماكن ، فالنجدان هما الخير والشر ، وهما متميزان بارزان ظاهران لكل من له إرادة وتمييز : فالحلال بيّن والحرام بيّن . ومن شأن كل إنسان عاقل ــ إذا أراد الاهتداء إلى مقتضى الفطرة ــ أن يعرف الخير من الشر ، وأن يميز الحلال من الحرام .

وإن كان من كلام امرأة العزيز :

(فهو واقع على الحقيقة لأنها قد أقرت بالذنب ، واعترفت بالمراودة والافتراء على يوسف) .

ثم يقول الشوكاني :

(إن النفس لأمارة بالسوء : أي ان هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات ، وتأثيرها بالطبع ، وصعوبة قهرها وكفها عن ذلك .

إلا ما رحم ربي : أي إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء) (٢) .

* وهل هذا الوصف ثابت للنفس - أو دائر مع مواقف الحياة المختلفة ؟

الجـــواب :

ليس هناك وصف ثابت للنفس ثبوت الحرارة للشمس ، أو ثبوت الضوء للنجم ، وإنما تستمريء بعض النفوس كما قلنا عماية الغواية حتى تعبّ كؤوس الملذات عباً ، وتنهل من حياض المحرمات نهلا ، ما دامت لم تجد عن الشهوات والملذات رادعاً ، ولم يتسلل إليها بصيص من نور الهداية ليعصمها عن الارتكاس في حمأة الشهوات والذنوب .

والواجب على المسلم إذا نزغته هذه النفس ، وسولت له أن ينزع إلى الشر ، أن يقوم بمقاومة أهوائها حتى يفوز بالنعيم الأخري (كما سيرد ذلك في علاج الأمارة بالسوء) .

---

(٢) الشوكانى (محمد بن على بن محمد) : فتح القدير ، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - ٣/ ٣٤ ، ٣٥

شيوع النَفس الأَمّارة :

شاء الله تعالى ، لحكمة يعلمها ولا نعلمها – أن تكثُر نسبة النفوس الأمارة بالسوء في المجتمعات – بدرجة لا يماثلها ما ذكر القرآن من نفوس أُخرى ذات صفات مغايرة .

وهذه الكثرة للنفوس الأمارة تؤيدها آيات كثيرة في القرآن الكريم ، غير أننا نقف الآن وقفة تأمُّلية أمام النص الشريف :

« إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي » .

فنلاحظ الملاحظات التالية :

أولا : إن الله سبحانه قد أورد النفس في صيغة الاستغراق المفيد لعموم الجنس ، وعلامتها أن يصلح وضع « كل » في موضع أداة التعريف : أي أن كل نفس أمارة . . الخ .

ونظير هذا الاستخدام قوله تعالى :

« إن الإنسان لفي خسر » .

أي الإنسان في عمومه ومعظم أفراده الذين لم يرتفعوا إلى مستوى المعرفة بقيمتهم وما أودعه الله فيهم من قدرات كفيلة بأن ترفعهم إلى أعلى عليين .

فالنفس الإنسانية في عموم أحوالها أمارة بالسوء (لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة إلا من رحمه الله .

والعدل والعلم طاريء عليها بإلهام ربها وفاطرها لها في ذلك ، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها .

فلم تكن أمارة إلا بموجب الجهل والظلم ، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة . وسبب الظلم : إما جهل وإما حاجة . وهي في الأصل جاهلة ، والحاجة ملازمة لها ، فلذلك كان أمرها بالسوء لازماً لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله . وبهذا يُعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة ، ولا تشبهها ضرورة تقاس بها ، فإنه – إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته – طرفة عين – خسر وهلك) (٣).

ثانياً : إن النفوس التي فهمت رسالتها وأدركت الغاية من خلقها في الحياة قليلة قليلة . وهذا هو المفهوم من قوله تعالى :

« إلا ما رحم ربي » .

ووجه الاستدلال على ذلك :

أن المستثنى يكون بالضرورة أقل عدداً من المستثنى منه ، « والمستثنى منه » ورد بصيغة العموم المفيدة للكثرة – فيكون المستثنى حسب السياق اللغوي أقل بكثير من الناحية العددية .

ثم إن هذه النسبة العددية التي عصمها الله برحمته عن أن تكون أمارة بالسوء – هي في الحقيقة موزعة على نوعين آخرين من أنواع النفوس سيرد ذكرهما بعد .

وهذا مؤداه أن النفوس الخيّرة قليلة قليلة .

وانظر ما يقوله الإمام ابن القيم :

(ويكفي في معرفة كثرتهم – وأنهم أكثر أهل الأرض :

---

(٣) ابن القيم الجوزية (أبوعبد الله محمد بن أبى بكر) : اغاثة اللهفان من مصايدالشيطان – ١/٩٣الناشر : مصطفى البابى الحلبى وشركاه بمصر (١٣٨١ هـ – ١٩٦١م)

ما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم :

أن بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون) .

وقد قال تعالى :

« فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا » (٤) .

وقال :

« وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » (٥) .

وقال :

« وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » (٦) .

وقال :

« وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ »(٧) (٨) .

وإزاء انتشار وشيوع هذه النفس ، وكثرتها في كل مجتمع واستمرارها في الدسّ والوقيعة والإيحاء بالشر والفتنة – كان لا بد لكل مسلم من الحذر والحرص حتّى لايكون ضحية للخداع :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ » (٩)

ثالثاً : أورد الله تعالى الخبر مؤكداً بعدة مؤكدات : وهي (إنّ) ، واسمية الجملة ، ولام الابتداء في الخبر .

---

(٤) سورة الاسراء آية (٨٩)　　(٥) سورة الانعام ، آية (١١٦)

(٦) سورةيوسف ، آية (١٠٣)　　(٧) سورة الاعراف،آية (١٠٢)

(٨) المرجع السابق لابن القيم٢/٢١　(٩) سورة الحجرات ، آية (٦)

• والخبر لا يرد بهذه الكيفية في عُرف البلاغيين إلا إذا كان المخاطب منكراً للخبر .

أو إذا كان المخاطب في منزلة المنكر للخبر حيث إن سلوكه يتعارض مع مقتضى علمه .

– ومثال التأكيد للمنكر قوله تعالى :

« **إنّا إليكم لمرسلون** » .

– ومثال التأكيد لمن كان في منزلة المنكر للخبر – من غير إنكار له – حيث إن سلوكه يتعارض مع مقتضى علمه – قوله تعالى :

« **ثم إنكم بعد ذلك لميتون** » .

فقد أكد الله ثبوت الموت رغم أنه ليس في حاجة إلى إثبات – لأن المخاطبين وإن لم ينكروه – إلا أن سلوكهم من الغفلة والإعراض عن صالح العمل ، والتمادي في المعصية – يجعلهم في منزلة من ينكرون الموت ، رغم أنهم ليس لهم منه فوْت .

* * *

وعلى هذا يكون تأكيد الله تعالى لحقيقة كون النفس أمارة بالسوء – معناه أن الأكثرين من الناس – وإن لم ينكروا هذه الحقيقة – إلا أنهم يتصرفون كما لو كانوا ينكرونها :

(أ) فأصحاب النفس الأمارة يزعمون أنهم هم الأخيار وغيرهم الأشرار :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ » (١٠) .

---

(١٠) سورة البقرة ، آية (١١) ، (١٢) .

ولا أحد يعترف بأن نفسه سيئة شريرة . . !!

(ب) وذوو النفوس الخيرة يتعاملون مع الآخرين كما لو كان الناس كلهم أخياراً . . دون أن يحذروا بطش الأشرار وخديعتهم . فجاء التأكيد لإبراز أن في النفوس شراً ، وأن هذا الشر يجب أن تقلّم أظافره وتتحطم أنيابه ليسلم الناس من أذاه .

الاستعاذة بالله من النفس الأمّارة :

من المعلوم للكافة أن سبب الشر في أي بيئة إنما هو النفس الأمارة بالسوء – أو ما يقوم به الشيطان من وسوسة للإنسان وتحريض له على الشر .

لذلك كان من المناسب أن يستعيذ الإنسان بربه سبحانه من النفس وشرورها ، ومن الشيطان ووسوسته ، ومعنى الاستعاذة بالله :

الإلتجاء إليه والاعتصام به ، وطلب النصرة والقرب منه (١١) .

ولذلك نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكرر الاستعاذة بالله من شرور النفس في « خطبة الحاجة » :

(ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا) .

وروى ابن أبي حاتم بسنده المتصل عن أبي هريرة رضي الله عنه :

(سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ :

---

(١١) وأصل المادة من العوذأى القرب من الشيىء أو الاتصال به ، يقال : ناقة عائذ أى يعوذ بها ولدها ،ويقال : أطيب اللحم عوذه أى ما اتصل منه بالعظم • وفى حديث أبىأسيد رضى الله عنه قول النبى صلى الله عليه وسلم لاميمة بنت نعمان بنشراحبيل : لقد عذت بمعاذ •

« **فألهمها فجورها وتقواها** » .

قال :

(اللهم آتِ نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من زكاها ، أنت وليّها ومولاها) .

وزيد في رواية « زيد بن أرقم » :

(اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها) .

قال زيد :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمناهن ، ونحن نعلمكموهنّ)

رواه مسلم

ويستفاد مما سبق إيراده أن النفس المستعاذ منها هي الأمارة بالسوء ، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الاستعاذة من النفس ومن الشيطان معاً في حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

(أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا رسول الله . . علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت . . قال :

(قل اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطر السموات والأرض ، ربّ كل شيء ومليكه . . أشهد ألا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجرّه إلى مسلم . .

قلْه إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك . .) .

رواه الترمذي وصححه

عِلاج النّفس الأمّارة بالسُّوء :

بعد كل ما أوردناه عن النفس الأمارة بالسوء ، وما لها من خصائص سيئة الأثر في حياة الفرد وفي حياة الجماعة الّتي تمثّل المناخ النفسيّ الذي تتجلى فيه آثار هذه النفس – كان لا بد من علاج لهذه الأمراض الّتي تصاب بها هذه النفس ، حتّى يسلم منها صاحبها ويسلم الناس أيضاً .

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله نوعين من العلاج لهذه النفس ، وهما : المحاسبة والمخالفة . وذكر تعليلا لذلك :

(إن هلاك القلب من إهمال محاسبتها ، ومن موافقتها واتباع هواها . وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(الكيّس من دان نفسه – وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله) .

دان نفسه : أي حاسبها – وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا – فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية)(١٢).

وما من شك أن السيطرة على النفس الأمارة ، وسدّ المسالك عليها في الاتجاه إلى الشر – إنما هو خطوة أساسية في الترقي بها إلى مرحلة أسمى وهي النفس اللوامة الّتي سيرد ذكرها .

---

(١٢) ابن القيم : اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (سبق ذكره) ٩٤/١

لا سيما إذا اقترن ذلك بحفظ الجوارح السبعة التي وصفها الإمام ابن القيم بأنها (رأس المال) . . وذلك أن هذه الجوارح السبعة هي النوافذ التي تطل منها النفس الأمارة بالسوء على مجالات الدس والفتنة والعصيان والعياذ بالله تعالى ، فهي وسيلتها إلى ممارسة ميولها الشريرة في إلحاق الأذى والضر بالآخرين :

(وهذه الجوارح السبعة وهي :

« العين ، والأذن ، والفم ، واللسان ، والفرج ، واليد ، والرجل » هي مراكب العطب والنجاة .

فمنها عطِبَ من عطب بإهمالها وعدم حفظها . .

ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها .

فحفظها أساس كل خير ، وإهمالها أساس كل شر .

قال تعالى :

« قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ »(١٣) .

وقال تعالى :

– « وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا »(١٤) .

وقال :

– « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »(١٥) .

---

(١٣) سورة النور (٣٠)
(١٤) سورة الاسراء (٣٧)
(١٥) سورة الاسراء (٣٦)

وقال :

- « وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ »(١٦) .

وقال :

- « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا »(١٧) .

وقال :

- « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » (١٨)(١٩)» .

* * *

---

(١٦) سورة الاسراء (٥٣)

(١٧) سورة الاحزاب (٧٠)

(١٨) سورة الحشر (١٨)

(١٩) المرجع السابق ١/٩٦

أوصاف النفس اللوامة

يقول الحق تبارك وتعالى :

« لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ »(١) .

اللوامة :

صيغة مبالغة من اللوم ، وهو شدة التعنيف والمؤاخذة .

فاللوامة كثيرة التعنيف لصاحبها — وهذا اللوم الواقع من النفس اللوامة لصاحبها يتجه في طريقين :

(أ) محاسبة صاحبها على وقوعه أو ارتكابه للعمل السيء ، كاقترافه معصية من المعاصي ، أو توجهه بالأذى لمن لا يستحقه ، أو عقابه على الشر بأكثر من المثل . . الخ . وهي بهذا اللوم الدائب الدائم — توقظ في صاحبها روح الإنابة والتوبة ، وتحمله حملا على الرجوع عن غير سبيل المؤمنين ، والاتجاه إلى الله تعالى لإصلاح ما فات ، وطلب العفو عما اجترح من سيئات .

---

(١) سورة القيامة ، آية ٢،١

(ب) محاسبة صاحبها على التقصير في العمل الصالح ، وهذه المحاسبة ذات شقين :

١ - محاسبة على التقصير في أصل العمل الصالح . . كترك التصدق على مسكين ، أو إهمال العطف على يتيم ، أو القعود عن نجدة مستغيث - وهي بلومها على التقصير في أصل الفعل النبيل إنما تحوّل مجرى السلوك إلى سلوك آخر أفضل منه ، وتستحثه بقوة واستمرار على المثابرة في الطاعة ، والمسارعة إلى فعل الخير .

٢ - محاسبة على التقصير في الاستكثار من فعل الخير .
مثل لومها على التصدق بمبلغ صغير ، ولومها على إطعام يتيم لا يتيمين أو أكثر ، ولومها على استضافة شخص مدة يسيرة لا كبيرة . . وهكذا .

هل يمكن أن تكون اللوامة « صفة ذم »؟

هناك رأى يقول بأن « اللوامة » صفة ذم لا مدح .

وينسب هذا الرأي إلى قتادة وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين .

وأورده الشوكاني في تفسيره بصيغة التضعيف .

وأساس هذا الرأي يقول إن اللوم من التلوم وهو التردد لأنها لا تستقر على حال واحدة ، أو أن اللوامة بمعنى الملومة .

* * *

وهذا الرأي يفتح في القضية نوافذ جديدة وجيدة أيضاً .
ذلك أن الإمام ابن القيم رحمه الله وأجزل ثوابه - قد توسط في الأمر ، فلم يعتبر النفس اللوامة ممدوحة على الدوام أو مذمومة على الدوام ،

وإنما نظر إليها من ناحية ما تلوم عليه ، فإن لامت على الخير فهي مذمومة وإن لامت على الشر فهي محمودة (٢) .

إذن فهذه النفس متّرددة بين الخير والشر .

نفس واعية لكيفية الاختيار بين هذا وذاك .

نفس في منزلة وسطي بين الأمارة بالسوء الّتي اختارت السير على الشوك ، والتخبط في الظلام ، والتّردي في الإثم ، ومواجهة عواقب الضرر والضرار . . وبين النفس المطمئنة الّتي هي أعلى مراتب النفس وعندها السكون والطمأنينة .

ويتفق هذا الرأي مع قول الفراء :

(ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها : إن كانت عملت خيراً قالت : هلاّ ازدادت ؟ وإن كانت عملت سوءاً قالت : ليتني لم أفعل) (٣) .

فأما التعبير بالإلهام في مقام الاختيار كما نقرأ في قوله تعالى :

« فألهمها فجورها وتقواها » .

فالمراد به أن هذا الاختيار يتّم بإرادة الله سبحانه وتعالى ، مع تّهيئة منه للعبد فيما يختار . هذا ما نفهمه مما رواه أحمد ومسلم من حديث عزرة بن ثابت :عن أبي الأسود الديلي قال ـ قال لي عمران بن حصين :

ـ أرأيت ما يعمل الناس ويتكادحون فيه : أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر سبق ـ أم شيء مما يستقبلون ، مما أتاهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم وأُكدت به عليهم الحجة ؟

---

(٢) راجع (اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) لابن القيم ١/ ٩٤

(٣) الامام الشوكاني : (فتح القدير) سبق ذكره ـ ٥/ ٣٣٥

قال بل شيء قضى عليهم .

– قال فهل يكون ذلك ظلماً ؟

قال ففزعت منه فزعاً شديداً !! قال قلت له : ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

– قال سددك الله ، إنما سألتك لأخبر عقلك !

إن رجلا من مزينة أو جهينة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله : أرأيت ما يعمل الناس ويتكادحون فيه : أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر سبق ؟ أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم وأكدت به عليهم الحجة ؟

قال بل شيء قضى عليهم .

قال ففيم نعمل ؟

فقال : من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه لها ، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى :

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .

فالله سبحانه يهيئ النفس لما خلقت له ، والاختيار والكسب للعبد فيما يختار . وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه – عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فإن خرج لما يحب الله اتبعه الملك برايته فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته – وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته .

هل النفس اللوامة هي «الملهمة»؟

بعض الباحثين يصف اللوامة بالملهمة ، ويقصد بذلك أنها ألهمت الخير والشر ، وأنها تدور في الاختيار بينهما حسب مواقف الحياة المختلفة ، وحسب ما يعتورها من نوازع الهدى والضلال ، وطبقاً لما يجتذبها من تيارات الرغبة أو الرهبة .

وهذا تأويل آيات عديدة في كتاب الله تعالى ، متضمنةٌ كلها لهذا المعنى :

«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا» (٤) .

يقسم الله تعالى بالنفس ضمن ما أقسم به من المخلوقات العظيمة ، وهو سبحانه لا يقسم إلا بأغلى الأشياء وأكرمها وأعظمها .

ويذكر سبحانه وتعالى :

أنه قد سوّى هذه النفس ، أي خلقها سويّة مستقيمة على الفطرة الأصيلة القويمة ، كما جاء في الحديث المتفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه : (كل مولود يولد على الفطرة .فأبواه يهودانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجسانه . كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟) (٥) .

* * *

---

(٤) سورة الشمس ٧ـ١٠

(٥) جمعاء : سليمة الاعضاء٠ جدعاء : مقطوعة الانف والاذن والشفة ، والجدع أخص بالانف ٠

وفي صحيح مسلم ، من رواية عياض بن حماد المجاشعي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

يقول الله عز وجل : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم (٦) .

معنى ذلك أن في النفس ميلا للاتجاه إلى كلا الطريقين ، ولكن عوامل النشأة والتربية وجماعة الرفاق وغير ذلك من وسائط التربية كفيلة بأن تشد النفس إلى جهة الخير أو جهة الشر ، والمطلوب من الإنسان أن يكون عاقلا مختاراً . لا متردداً حائراً . فما هو إلهام الفجور والتقوى ؟ وما سرّ تقديم الفجور على التقوى ؟

ولماذا عبّر بالإلهام في مقام الاختيار ؟

* * *

يقول الحافظ ابن كثير في معنى « فألهمها فجورها وتقواها » :

أي أرشدها إلى فجورها وتقواها ، أي بين لها ذلك وهداها إلى ما قدر لها .

ويزيد القاضي البيضاوي في تفسيره الموسوم (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) (وإلهام الفجور والتقوى : إفهامها — وتعريف حالهما — والتمكين من الإتيان بهما) .

* * *

أمّا تقديم الفجور على التقوى فسببه — والله أعلم — أن دواعي الفجور في النفس أقوى من دواعي التقوى . ولذلك ورد الخبر بأن الجنة حُفّت

---

(٦) حنفاء : مائلين عن الضلال متجهين الى الحق ، من الحنف — بالتحريك — وهو الميل .

بالمكاره ، كما قد حفت النار بالشهوات ، كما أنه قد رجح القول بأن الصبر عن المعصية أفضل من قسيميْه وهما : الصبر على الطاعة ، والصبر على البلاء : (وههنا مسألة تكلم فيها الناس :

وهي أيّ الصبرين أفضل : صبر العبد عن المعصية ، أم صبره على الطاعة ؟ فطائفة رجحت الأول وقالت :

— الصبر عن المعصية من وظائف الصديقين ، كما قال بعض السلف : أعمال البرّ يفعلها البر والفاجر ، ولا يقوى على ترك المعاصي إلا صدّيق .

— قالوا : ولأن داعي المعصية أشدّ من داعي ترك الطاعة ، فإن داعي المعصية أمر وجودي تشتهيه النفس وتلتذ به ، والداعي إلى ترك الطاعة الكسل والبطالة والمهانة ، ولا ريب أن داعي المعصية أقوى .

— قالوا : ولأن العصيان قد اجتمع عليه داعي النفس والهوى والشيطان وأسباب الدنيا وقرناء الرجل وطلب الفتنة والمحاكاة وميل الطبع — وكل واحد من هذه الدواعي يجذب العبد إلى المعصية ويطلب أثره ، فكيف إذا اجتمعت وتظاهرت على القلب ؟ فأي صبرٍ أقوى من صبرٍ عن إجابتها ؟ ولولا أن الله يصبّره لما تأتي منه الصبر . وهذا القول كما ترى حجته في غاية الظهور) (٧) .

لماذا اقترنت النفس اللوّامة بيوم القيامة ؟

لا جَرَم أن أي نشاط في النفس لا بد له من حافز أو باعث . والنفس اللوامة نفس مجاهدة صابرة تواجه الكثير من مكابدات الحياة ومتاعبها وآلامها . وهي مع ترقب الآخرة في معظم ما تقوم به من أنشطة ملاميّة .

(٧) ابن القيم (شمس الدين محمد بن أبى بكر) : طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٢٧٥ الناشر : محب الدين الخطيب (المطبعة السلفية بالقاهرة) ط ٢ (١٣٩٤هـ) .

ومعلوم أنه لولا تيقّن النفس بحقيقة القيامة وأهوالها وما يحدث فيها من حساب وعتاب وجزاء وعقاب — لما كان ثمة دافع لديها للإكثار من اللوم والمداومة عليه والاستمرار فيه .

وإقتران النفس اللوامة أيضاً بيوم القيامة (في مطلع سورة القيامة) له دلالة أخرى عميقة :

وهي أن النتائج النهائية لهذا اللوم الصادر عن النفس اللوامة ، ومدى قبوله أو رفضه من صاحبها — إنما تظهر بصورة فعلية يوم القيامة :

« يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٨)

لذلك ، كان من جملة الأوصاف الطيبة الحميدة للمؤمنين الصادقين ، الذين يخشون الله تعالى والدار الآخرة — هذا الوصف الجميل النبيل :

« وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ » (٩) .

هل للنفس اللوامة أثر في لوم الآخرين ؟

نعم ، يمكن أن يكون للنفس اللوامة أثر ملموس في لوم الآخرين على ما فعلوا من خير أو شر ، ولكن بطريق غير مباشر .

ذلك أن النفس اللوامة ليست جوهراً متميزاً بذاته عن الجسد . . و ليس لها جِرم مادي . .

---

(٨) سورة آل عمران، آية(٣٠)　　(٩) سورة المؤمنون (٦٠،٦١)

ومن ثم فهي لا تستطيع أن تنتقل إلى ذوات الآخرين لكي تلومهم أو توجه النصح إليهم . وهي ليست بذات لسان حتى تتوجه بالخطاب إلى هذا أو ذاك من عباد الله .

وإنما يحدث هذا التأثير من النفس اللوامة بطريقة أخرى :

أن تحض صاحبها إلى دعوة الآخرين إلى شيء محدد يؤثر فيهم من ناحية معينة من نواحي الحياة – فيكون في ذلك تأثيرها غير المباشر وغير المحدود إذا استجاب لها صاحبها في غيرها من النفوس .

وهذه الظاهرة يعرفها علم النفس « بظاهرة الإيحاء » .

وكثيراً ما تكون هذه الظاهرة سبباً في تعديل السلوك ، وتغيير الأفكار والاتجاهات والميول لدى الكثير من الناس ، ممن لهم قابلية لهذا الاستهواء بطريقة تلقائية .

فإذا كان للنفس اللوامة أثر في زجر الآخرين عن الشر ، ودعوتهم إلى الخير – فإنها تنتقل بصاحبها انتقالة مفيدة من مرتبة الصلاح إلى مرتبة الإصلاح ، وتلك أسمى الغايات في طريق الدعوة إلى الله عز وجل .

ذلك أن الصلاح وحده – صلاح النفس وتزكيتها بالفضائل وتطهيرها من الرذائل – وإن كان طيباً مستحباً نافعاً للنفس ومفيداً لها في تحقيق الخير والراحة النفسية والتخلص من المشكلات – فإنه لا يتحقق به هدف الدعوة المحمدية .

إنما يتحقق هدف الدعوة المحمدية النبيلة بانتقال شحنة الصلاح إلى نفوس الآخرين . بأن يتحول الصالحون إلى مصلحين . بأن يكون الإصلاح طريقنا إلى النجاة (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) – (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب) .

هل أقسم الله بالقيامة والنفس اللوّامة؟

لقد وردت الآيتان (في مطلع سورة القيامة) متضمنتين بصورة القسم دون تحقيقه وإمضائه .

فلمـــاذا ؟

يبدو — والله أعلم بمراده في كتابه — أن التلويح بالقسم دون تحقيقه وإمضائه جاء لحكمة جليلة ، وهي التدليل على أن المقسم عليه أمر لا يحتاج في وضوحه وثبوته وتيقنه إلى قسم .

ولو أنه — أي المقسم عليه — جاء مؤكداً بالقسم — لما زاده القسم تأكداً وبروزاً ووضوحاً ، لأن المقسم عليه مؤكد في نفسه ، ثابت ومتحقق في ذاته ، وإذن يكون تأكيده من باب تحصيل الحاصل ، وتحصيل الحاصل مُحال !

وليس يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل

* * *

ثم هناك دلالة أُخرى ، في هذا التركيب القرآني البديع : وهي الإشارة إلى حال أُولئك المنكرين للبعث :

فهم قوم قد أغلقوا عقولهم ، وأصمّوا آذانهم ، وثبتوا في الضلال والظلام أفئدتهم — وأخذوها قضية مسلّمة لا تقبل الجدل ولا النقاش ، ولا ينفع فيها البرهنة والقياس . فهم كما قال الله تعالى في أهل الكتاب :

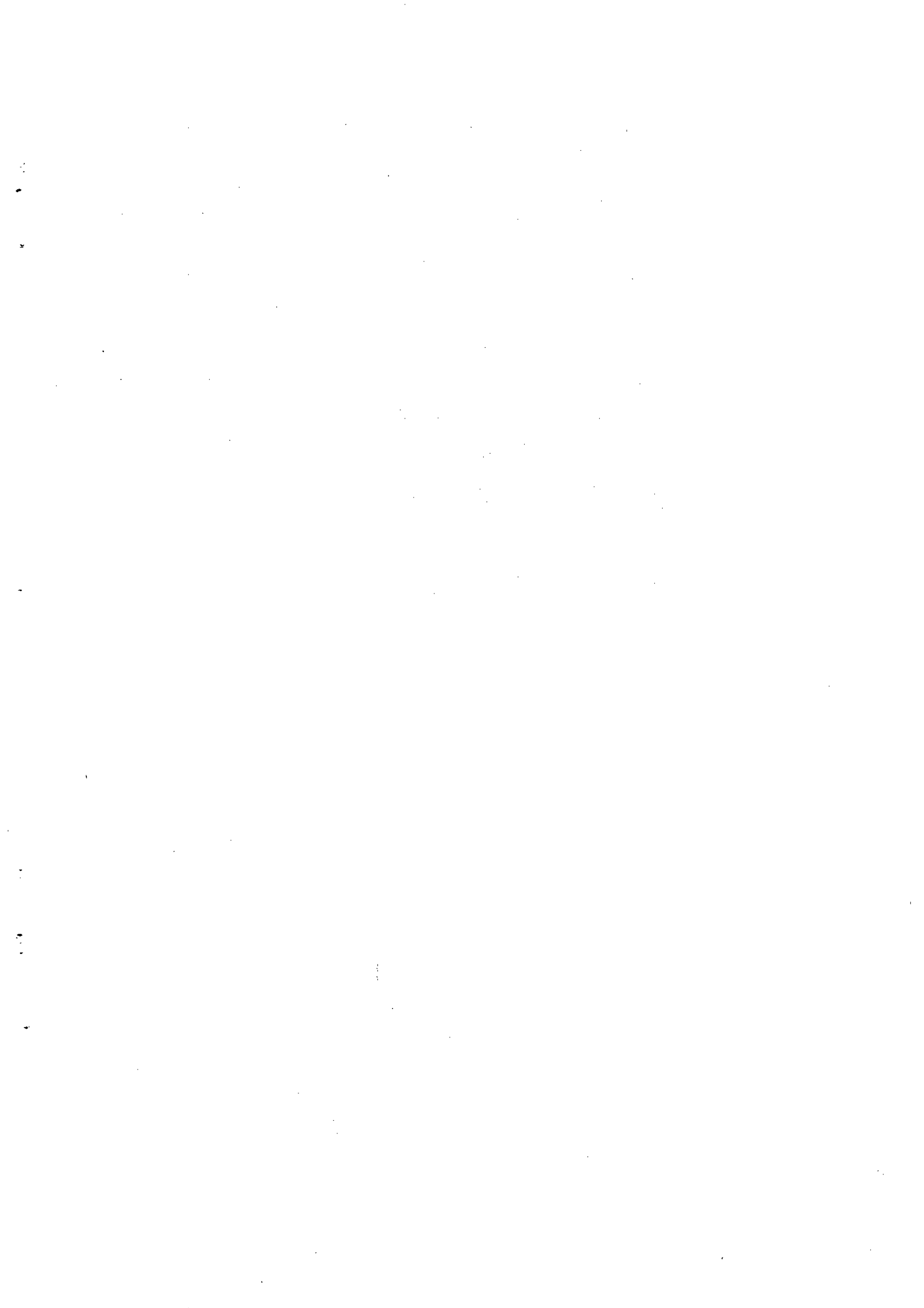
« وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ » (١٠) .

من هنا جاءت الآيتان على هذا النسق للإبانة عن أن أُولئك المنكرين للبعث يستوي عندهم الإقسام وغيره فهم في الحالين لا يؤمنون ، كيف وهم يعارضون في التسليم بالبدهيات ، ويعاندون في الإيمان بالمسلمات :

« سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » (١١) .



(١٠) سورة البقرة (١٤٥)　　　(١١) سورة البقرة (٦)



النفس المطمئنة

يقول الحق تبارك وتعالى :

« يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى »(١) .

هكذا يتحدث القرآن الكريم حديثاً جلياً واضحاً عن النفس المطمئنة : ويرد هذا الحديث البليغ المركز في مقام التدليل على شرف هذه النفس وعلو مقدارها ، ومدى ما أعد الله تعالى لصاحبها من الأجر الجزيل والثواب الجليل ، حيث يقال لها عند الاحتضار ، أو في الموقف الأكبر ، أو فيهما معاً : يا أيتها النفس المطمئنة . . الخ السورة .

والذي يدل على الرأي الأول ، وهو أن هذا القول يقال للنفس المطمئنة عند الموت : ما ورد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نزلت وأبو بكر جالس ، فقال يا رسول الله ، ما أحسن هذا ! فقال :

---

(١) سورة الفجر (٢٧ ــ ٣٠)

(أما إنه سيقال لك هذا) . وزاد في رواية ابن جرير عن أبي كريب عن ابن يمان : (أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت) .

وقد ذهب الحافظ « ابن كثير » إلى أن هذا القول (يقال لها عند الاحتضار ، وفي يوم القيامة أيضاً ـ كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره ، فكذلك هنا) (٢) .

النفس المطمئنة : ما هي ؟ وما خصائصها ؟ وما سر اطمئنانها ؟

يقول الإمام القرطبي في تفسيره موضحاً ماهيّة النفس المطمئنة ، وحقيقتها التي بلغت بها تلك المنزلة العليا عند الله عز وجل : (النفس المطمئنة : الساكنة الموقنة ؛ أيقنت أن الله ربها فأخبتت لذلك ـ قاله مجاهد وغيره .

وقال ابن عباس : أي المطمئنة بثواب الله ـ وعنه : المؤمنة .

وقال الحسن : المؤمنة الموقنة .

وعن مجاهد أيضاً : الراضية بقضاء الله ، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها .

وقال مقاتل : الآمنة من عذاب الله) (٣) .

* * *

(٢) أنظر : الحافظ بن كثير :تفسير القرآن العظيم ـ ٤/٥١٠ ، طبعة دار احياء الكتب العربية بمصر

(٣) القرطبى (أبوعبدالله محمد بن أحمد الانصارى) : الجامع لاحكام القرآن ٢٠/٥٧ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ٠ الناشر : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة (١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م)

ويبدو من مجموع الأقوال الواردة في ماهية هذه النفس وتحليل أوصافها العميقة وخباياها الدقيقة — أنها نفس بلغت قمة الرضى والأمان لأنها اعتصمت بالله من كل حظوة وافتتان ، وصارت فوق الأحداث بما آتاها الله من حكمة في التماس الحكمة الإلهية في الأحداث ، فكفّت هذه النفس عن لهو الحديث ، وانشغلت بالأعمال الصالحة عن فضول القول ، وعن سفساف الأمور ، وعن محقّرات الأعمال .

وأصحاب هذه النفس قد رضوا بما قسم الله لهم من حظوظ العيش ، فلم يشغلهم في هذه العاجلة ما شغل غيرهم من الجري وراء الأطماع ؛ والتكالب على حطام الحياة الفاني ، و حسد الناس على ما آتاهم الله من فضله .

تراهم وقد رضوا بقضاء الله ، وأوصلهم برد اليقين إلى الاطمئنان بما عند الله ، فسكنوا إلى راحة الإيمان ، واطمأنوا في واحة الأمان ، بعيداً عن وساوس الشيطان .

وقد أعطت الآيات الكريمة للنفس المطمئنة أوصافاً أربعة :

الوصف الأول : أنها راضيـــة :

راضية بما أنعم الله به عليها من خير عميم وفضل عظيم ، حيث أحسن ختامها ، وأجزل ثوابها ، وشرفها وكرّمها بتوجيه النداء إليها .

الوصف الثاني : أنها مَرْضيـــة :

أي أنها فازت برضاء الله تعالى عنها ، حيث أخلصت في طاعته وتوحيده ، ورضاء الله تعالى هو الغاية العظمى الّتي ليس فوقها غاية ، بل إن رضاء الله تعالى مقام عظيم أغلى مما أُوتوا من نعيم مقيم : (ورضوان من الله أكبر) . وقد صرّح القرآن الكريم في موضع آخر ، أن هذا المقام لا يبلغه إلا من خشي ربه ، فقال في ختام سورة « البينة » :

« جزاؤهم عند ربهم جنات عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه » .

يقول الحافظ "ابن كثير" الدمشقي : (أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه)(٤) .

* * *

الوصف الثالث : أنها داخلة في زُمرة عباد الله الصالحين .

وهذا تكريم آخر للنفس المطمئنة بوضعها بين أشباهها ونظائرها ، وإدخالها في جملة من أخلصوا العبادة لله تعالى معها ؛ وهو تكريم متعدد ومتجدد :

(أ) فأما تعدده : فلأنه بكثرة الجماعة وتعدد أفرادها يرتفع مقدارها في موازين التكريم ـ فكيف إذا كان أساس التجمع هو الجلوس على بساط العبودية تحت مظلة الكرم الإلهي وحول موائد الفضل والجود من الإله المعبود ؟

(ب) وأما تجدّده : فلأنه كلما استحقت نفس أن تنعم بساحة الاطمئنان نوديت هذا النداء العظيم بدخولها في زمرة عباد الله الصالحين ، فيكون في ذلك تكريم للخصائص التي اجتمعت عليها تلك النفوس المطمئنة ، وأحببْ بها من خصائص طيبة في الاعتقاد وفي التعبد . وهذا المعنى تؤكده آية كريمة أخرى من الكتاب الكريم ، وهي قوله تعالى :

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ » (٥)

---

(٤) الحافظ بن كثير : تفسير القرآن العظيم (مشار اليه) ٥٣٨/٤

(٥) سورة العنكبوت ، آية رقم(٩)

الوصف الرابع : أنها من أهل الجنة .

وذلك من جملة تكريم الله تعالى للنفس المطمئنة .

قال القرطبي في تفسيره :

(والصحيح أنها عامة في كل نفس مؤمن مخلص طائع ، قال الحسن البصري : إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن — اطمأنت النفس إلى الله تعالى واطمأن الله إليها . وقال عمرو بن العاص : إذا توفى المؤمن أرسل الله إليه ملكين وأرسل معهما تحفة من الجنة ، فيقولان لها : أخرجي أيتها النفس المطمئنة راضية مرضية ومرضياً عنك ، اخرجي إلى روحٍ وريحانٍ ، وربّ راض غير غضبان ، فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من أنفه على ظهر الأرض . . وذكر الحديث) (٦) .

* * *

وبعد هذه الأوصاف الأربعة الرائعة الماتعة ؛ نأتي إلى نصّ نبويّ صريح ، يوضّح الخصائص الأساسية للنفس المطمئنة .

فقد أورد الحافظ « ابن عساكر » في ترجمته لرواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي عن أبيها :

حدثني سليمان بن حبيب المحاربي ، حدثني « أبو أُمامة » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : (قل اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة :

تؤمن بلقائك — وترضى بقضائك — وتقنع بعطائك) (٧) .

* فالإيمان بلقاء الله تعالى ، والمقصود به الإيمان بالبعث ، هو أهم ما يبعث الخشية في قلب المؤمن .

---

(٦) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن (سبق ذكره) ٢٠/٥٨

(٧) أنظر تفسير ابن كثيـــر ٤/٥١١

* والرضى بالقضاء : هو مفتاح الصلة الحسنة بين العبد والرب ، ودليل التسليم المطلق لله ، وإسقاط التدبير مع الله .

* والقناعة بالعطاء : هي مبعث الراحة النفسية للمؤمن ، وأساس التعايش السلمي مع سائر المخلوقات دون تطلع إلى مافي أيديهم ودون حقد عليهم .

النَّفسُ المطمئِنَّة مِن أَينَ تَستَمدُّ اطمئنَانهَا ؟

الذي يستفاد من مختلف الأقوال الواردة عن العلماء في هذه المسألة — أن النفس المطمئنة تستمد إيمانها من نواحٍ عديدة :

(أ) تستمد اطمئنانها من رضاء الله تعالى عنها ، ورضاء الله تعالى غاية الغايات كما سبق أن أوضحنا .

(ب) تستمد اطمئنانها من وعد الله تعالى لها بالثواب وهو النعيم السرمدي :

« فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي » .

فهي مطمئنة لأنها بشّرت بالجنة عند الموت ، وعند البعث ، ويوم الجمع .

(ح) تستمد اطمئنانها من توحيد الله تعالى وحده لا شريك له ، وإفراده وحده بالعبادة ، فإن الله سبحانه قد وعد وهو أصدق من وعد فقال :

« ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ » (٨)

---

(٨) سورة الانعام ، اية (٨٢)

ففي الآية الشريفة قصر الأمن على الموحّدين ، وهو قصر طريقه التقديم ، فلا أمن إلا لهم ، ولا اطمئنان إلا لنفوسهم .

(د) تستمد اطمئنانها من ذكر الله تبارك وتعالى . وقد صرّحت الآية الثامنة والعشرون من سورة الرعد – بأن ذكر الله تعالى يورث الاطمئنان في القلوب ، نتيجة الركون والتسليم لعلاّم الغيوب .

يقول تعالى :

« الذين آمنوا ، وتطمئن قلوبهم بذكر الله – ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وتفيد الآية هنا أيضاً قصر الاطمئنان على الذكر ، وقد تكون هناك أسباب أُخرى لاطمئنان القلوب ، ولذا يقول الشوكاني :

(والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه ، وإن كان يفيد طمأنينة في الجملة – لكن ليست كهذه الطمأنينة ، وكذا النظر في المعجزات من الأمور التي لا يطيقها البشر ، فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر الله ، فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر) (٩) .

الحكمة من توجيه النداء إلى النفس :

لنعلم أولا أن النفس الإنسانية مستودع الأسرار ، وموطن الأخبار ، وفي أعماقها يكمن السرّ بين الأشرار والأخيار . ثم إن القرآن الكريم يعترف بتأثير هذا الجانب الخفي من الإنسان في سلوك الإنسان عامة ؛ اقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ » (١٠) .

---

(٩) الشوكاني (فتح القدير) ٨١/٣ سبق ذكره

(١٠) سورة ق ، آية (١٦)

ثم إن القرآن الكريم يستخدم النفس بمعنى الذات أيضاً ، تأمل قوله تعالى :

« وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » (١١) .

فتوجيه النداء الإلهي إلى النفس المطمئنة :

إنما هو إعلاء لشأنها ، وإعلان وتنويه وإشادة بفضلها ، وتحقيق للأثر الخطير الذي تقوم به في توجيه الذات إلى السلوك القويم المستقيم — كما يوجهها إليه خالقها تبارك وتعالى .

من هنا لا نرى ضرورة ما — لتأويل (ارجعي إلى ربك) — بمعنى عودي إلى صاحبك وجسدك . . فذلك تأويل لا يتناسب مع سياق الآيات ، ثم إنه يقتضي تأويل (فادخلي في عبادي) : أي في أجساد عبادي — كما ذكر القرطبي في تفسيره (١٢) .

ثم إن السير في هذا الدرب التعسفي من التأويل ينخفض بنا كثيراً عن مستوى التكريم العالي الذي ارتفعت إليه النفس المطمئنة من خلال السياق القرآني البديع الرفيع ، ولذا ارتأى الشوكاني الرأي الأول وهو دون شك ذواقة بأسلوب القرآن الكريم ومدرك للكثير من أسراره ، والله أعلم بمراده .

هذه هي النفس المطمئنة : (التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره ولم تسكن إلى سواه . .

فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره . .

واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره . .

واطمأنت إلى لقائه ووعده . .

---

(١١) سورة ق ، آية (٢١)

(١٢) أنظر : الجامع لاحكام القرآن ٢٠/٥٩

واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته . .

واطمأنت إلى الرضى به ربّا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمدٍ رسولا . .

واطمأنت إلى قضائه وقدره . .

واطمأنت إلى كفايته ورعايته وضمانه . .

فاطمأنت بأنه — وحده — ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله ، وأن مرجعها إليه ، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين) (١٣) .

---

(١٣) ابن القيم : اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (مشار اليــه) ٩٢/١



دراسة مقارنة

للنفوس الثلاثة في القرآن

انتهينا فيما سبق من الصفحات – إلى أن النفوس ثلاثة .

فهل هي أنواع ثلاثة من النفوس – أو هي حالات مختلفة تتعاور النفس الواحدة ؟

قد أشرنا إلى طرف من الحوار الدائر في القضية – والآن يضع العلامة « ابن القيم » الحل الحاسم في المشكلة – حين يقول :

(وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاثة صفات (١) :

المطمئنة ، والأمارة بالسوء ، واللوامة .

فاختلف الناس : هل النفس واحدة ، وهذه أوصاف لها ؟

---

(١) كذا بالاصل ،بالنسخةالتى حققها (محمد سيد كيـــــلانى) – والصواب هو : بثـــلاث صفات –(بحذف التاء من ثلاث) لان العـدد المفرد أو المضاف يخالف المعـــدودتذكيرا وتأنيثا . قال (ابن مــــالك الاندلسي) فى (الخلاصة) :

(ثــلاثةبالتاء قل للعشرة ... فى عـد ماآحاده مذكرة)

أم (٢) للعبد ثلاث أنفس : نفس مطمئنة ، ونفس لوامة ، ونفس أمارة ؟

فالأول :

قول الفقهاء والمتكلمين وجمهور المفسرين .

والثاني :

قول كثير من أهل التصوف .

والتحقيق أنه لا نزاع بين الفريقين ، فإنها واحدة باعتبار ذاتها — وثلاث باعتبار صفاتها :

فإذا اعتبرتْ بنفسها فهي واحدة .

وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى . فهي متعددة .

وما أظنهم يقولون : إن لكل أحد ثلاث أنفس : كل نفس قائمة بذاتها مُساوية للأخرى فيَ الحد والحقيقة ، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفس ، كل واحدة مستقلة بنفسها .

— ثم يقول ابن القيم رحمه الله :

وحيث ذكر الله النفس وأضافها إلى صاحبها — فإنما ذكرها بلفظ « الإفراد » — وهكذا في سائر الأحاديث . ولم يجيء في موضع واحد : « نفوسك »«ونفوسه» ولا « أنفسك » « وأنفسه » — وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم : كقوله :

« وإذا النفوس زوجت »

---

(٢) الصـواب (أو) لان (أم) المتصلة ـ كالتى هنا ـ لا يؤتى بها الا بعد همزة التسوية ـ أو بعـد همزة مغنية عن أى . قال ابن مالك :

و (أم) بها اعطف اثر همز التسوية .. أو همزة عن لفظ أى مغنية .

أو عند إضافتها إلى الجمع — كقوله صلى الله عليه وسلم :
— « إنما أنفسنا بيد الله » .

ولو كانت في الإنسان ثلاث أنفس لجاءت مجموعة إذا أضيفت إليه ولو في موضع واحد » (٣)

هذا برهان قوي لا مجال لدحضه . لأنه يقوم على أساسين : من النقل والعقل معاً .

وبذلك تسقط حجة من قال بأن النفوس أكثر من ثلاثة أو أقل من ذلك — وسنذكر الآن ما يلي :

الرد على من قال بأن النفوس خمسة

ذكر بعض الباحثين (٤) النفوس الثلاثة الماضية — وزاد عليها نفسين أخريين :

أولاهما : النفس المسوّلة . .

أخذاً من آيات عديدة وردت فيها مادة التسويل ، مثل قوله تعالى :

— « قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » (٥) .

— « قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » (٦)

— « وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي » (٧)

---

(٣) المرجع السابق ١/٩٢

(٤) انظر : د. احمد الشرباصي من أدب القرآن ، ص ١٦٩ وما بعدها ، الناشر دار المعارف بمصر (١٩٧٦م) (٥) سورة يوسف ، آية (١٨)

(٦) سورة يوسف، آية (٨٣) (٧) سورة طه ، آية (٩٦)

- « إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ » (٨)

وقد جاء في وصف هذه النفس (انها النفس التي تزين القبيح فتعرضه في صورة الجميل ، وتسوغ أهواءها بمكر وبراعة ، فترسم الشر وكأنه خير ، وتقيم الدليل بعد الدليل من وهمها وزعمها على أن شهواتها معقولة ومقبولة . وجاء هذا المعنى من أنه يقال :

سوّلت له نفسه كذا تسويلا : أي زينته وحببته إليه ليفعله ، وسوّل فلان لفلان كذا ، أي زينه وحببه إليه ليفعله) (٩) .

ثم زاد نوعاً آخر أسماه بالنفس الموسوسة ، أخذاً من قوله تعالى :

- « وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ » (١٠) .

وجاء في تعريف هذه النفس :

(تهمس إلى صاحبها بالصوت الخفيّ الذي لا يكاد يسمع من الأعماق ، لتذكّره بخواطر الإثم ومشاعر المنكر — لأن الوسوسة في الأصل هي الصوت الخفي ، ويقال لحديث النفس وسوسة : وهي ما يخطر بالبال ، ويهجس بالضمير ، والوسواس هو الشيطان الذي يوسوس لغيره ، ولهذا جاء قول الله تعالى في سورة الناس :

« قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس » (١١) .

وبمزيد من التمعن والتدبر فيما سبق من أدلة — نرى أنه لا ضرورة

---

(٨) سورة محمد ، آية ٢٥
(٩) المرجع السابق ص ١٦٩
(١٠) سورة ق ، آية (١٦)
(١١) المرجع ص ١٧٠

على الإطلاق لإيراد هذين القسمين من أقسام النفس ، وهما النفس المسوّلة ، والنفس الموسوسة . .

أما أسباب ذلك – فهي كما يلي : –

١ – لم يقل أحد من جماهير المحققين المعتدّ بهم ، أو المفسرين الموثوق بأقوالهم ، أن هناك نفسين بهذين الإسمين وهاتين الصفتين ، وقد أوردنا عبارة الإمام ابن القيم في أن النفوس ثلاثة ، ولا زيادة عليها لمستزيد .

٢ – أن النصوص القرآنية التي سبق إيرادها مع هذين القسمين المزعومين من أقسام النفس لا تساعد على قيام الفكرة على ساقيها ، وهي فكرة أن النفوس خمسة . ذلك أن الآيات القرآنية لم تذكر قسماً برأسه يدعى بالنفس المسوّلة – ولا قسماً برأسه يدعى بالنفس الموسوسة – كما ذكرت النفوس الثلاثة الأخرى باعتبارها قوى مستقلة ذات صفات محددة ومميزة .

٣ – أن هاتين النفسين – حسب التعريف الوارد لهما – يمكن بسهولة إدخالهما ضمن عنوان النفس الأمارة بالسوء ، على اختلاف في درجات السوء أو دركاته بعبارة أدق .

(أ) فالتسويل ، (وهو تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه) يدخل بوجه من الوجوه تحت الأمر بالسوء مع اختلاف الكيفية .

(ب) والوسوسة ، (وهي الهمس بالصوت الخفي الذي لا يكاد يسمع) ليست إلا إيحاءً بالشر ، من النفس الأمارة بالسوء إلى صاحبها ، بطريقة خفية ولكنها دائبة ومستمرة .

٤ – أن مدى التفاوت بين هاتين النفسين كلتيهما – ثم بين كلتيهما وبين النفس الأمارة – لا يسمح بتكوين قوة نفسية مستقلة ومغايرة .
فلا النفس المسوّلة تصلح أن تكون قسماً مستقلا برأسه .
ولا النفس الموسوسة تصلح أن تكون قسماً قائماً بنفسه .
ولا كلتاهما معاً تصلح أن تكون قسماً مغايراً للنفس الأمارة بالسوء .

رأي جديد في النفوس الثلاثة :

أشرنا سابقاً إلى خصائص النفوس الثلاثة ، وعرفنا أنها حالات يمر بها الإنسان طبقاً لمواقف الحياة المختلفة – من حيث إنه ليس للنفس جوهر مستقل في داخل الذات .

ويجدر بنا أن نشير هنا مجرد إشارة – إلى أن القرآن الكريم قد سبق ما توصل إليه علم النفس الحديث – من أن هناك قوى ثلاثة تؤثر في سلوك الإنسان وتقوده وتوجهه من داخله : وهذه القوى الثلاثة موزعة كالآتي :

(أ) قوة شريرة غرزية هدفها إرضاء الغرائز الدنيا ، وإشباع الحاجات البيولوجية ، والعيش لإشباع الذات ومساعدتها على أن تعبّ من الملذات .

(ب) قوة الذات الواعية ، الذات التي تتأرجح بين الخير والشر مع معرفتها التامة بكنه كل منهما ، وما له من نفع محقق أو ضرر محدق . وهي تجاهد في سبيل حفظ التوازن بين أ ، ج . وهذه القوة الوسطى ، أو الذات الواعية ، التي ألهمت فجورها وتقواها – قد يغلبها جانب النزوع الأرضي تارة – وقد يشدها جانب السمو العلوي تارة أخرى . والقرآن الكريم أيضاً قد دعا منذ قرون أربعة عشر – إلى المجاهدة لهذه النوازع وإعلائها والسموّ بها : إذ يقول الحق تباركت أسماؤه :

« قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّـٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّـٰهَا » (١٢)

قال الحافظ « ابن كثير » :

(قد أفلح من زكّى نفسه — أي بطاعة الله كما قال قتادة ، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل . وقد خاب من دساها : أي دسّسها وأخملها ووضع منها بخذلانه إيّاها عن الهدى — حتّى ركب المعاصي وترك طاعة الله عز وجل) (١٣) .

وليس ضرورياً ولا ممكناً — أن يكون هناك نوع من النفوس يسمى « بالنفس الملهمة » — كما فعل العقاد — حين جعلها قسماً مستقلا يقابل النفس الواعية (١٤) .

ذلك أن كل النفوس قد ألهمها الله فجورها وتقواها .

كل النفوس قد زودها خالقها باستعدادات فطرية للنزوع إلى الخير أو الشر . وعلى النفس أن تختار ، ليكون لها أو عليها نتيجة الكسب أو الاكتساب فيما تختار .

وقد أقسم الله تعالى بهذه النفس — مُورداً إياها في صيغة التنكير المفيدة للعموم : ومعنى هذا أن عامة النفوس قد زودها الله تعالى بهذين النجدين : نجد الخير ونجد الشر .

ثم إن النفس قد تصعد في اختيارها أو تهبط :

قد تصعد من هذا المقام — مقام المجاهدة والمكابدة والتردد واللوم — إلى مصاف الأتقياء ذوي النفس المطمئنة .

---

(١٢) سورة الشمس ، آية ٩، ١٠

(١٣) انظر تفسير ابن كثير ٥١٦/٤ (مشار اليه)

(١٤) انظر : عباس محمود العقاد (الانسان فى القرآن الكريم) ص ٣٧ ، ٣٨ ، الناشر : دار الاسلام بالقاهرة (بدون تاريخ)

وقد تهبط من هذا المقام ــ مقام المجاهدة والمكابدة والتردد واللوم ــ إلى منحدر الأدنياء ذوي النفس الأمارة .

وذلك هو قول الحق :

« فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ » (١٥)

(جـ) القوة الثالثة في عرف علم النفس الحديث هي قوة الذات العليا أو الأنا العليا .

والمشكلة أن الكثيرين يعتقدون أن النفس المطمئنة لا تكون كذلك إلا عند الموت ، وسبب اعتقادهم هذا أن النداء لها جاء عند الاحتضار ، وبعضهم رأى أن توقيت النداء إنما هو عند الحشر . ونسوا أن هناك نموذجاً واقعياً للنفس المطمئنة ــ قد أورده القرآن الكريم في موقف من أشد مواقف التاريخ الإسلامي حرجاً ، وأكثرها خطراً ، حين وقف قادة الشرك على أبواب الغار ، غار ثور ، وتوجس الصديق أبو بكر رضي الله عنه خيفةً أن يرى الكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمسكوا به ، ومع أن الحزن يعقل لسانه عن الكلام ، وقدميه عن الحركة ، وقلبه عن الخفقان ، إلا أنه مع هذا الاضطراب الشديد استطاع أن يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم :

ــ لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . . ! !

وهنا تجلّت النفس المطمئنة بأروع مظهر وأبدع مخبر . .

وربط الله على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . .

وثبتت نفسه المطمئنة ، المليئة بالسكينة ، الواثقة من العون الإلهي ،

---

(١٥) سورة النازعات (٢٧ ــ ٤١)

فقال هذه الكلمات التي نزلت على قلب أبي بكر رضي الله عنه برداً وسلاماً وغمرته راحة وأمانا :

— يا أبا بكر . . ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟

لا تحزن ، إن الله معنا .

واقرأ الآية المتممّة للأربعين من سورة التوبة ، فهي تصور لك الموقف بكل عناصره في إعجاز قرآني لا يبارى ولا يجارى :

— « إلاّ تنصروه فقد نصره الله ، إذْ أخرجه الذين كفروا ثانيَ اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيّده بجنود لم تروها ، وجعلَ كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » .

إذن فلعلّه من الإعجاز القرآني الحكيم ، والله أعلم بمراده — أن يكون للقرآن فضل السبق على علم النفس الحديث ، بتحديد هذه القوى النفسية الثلاثة ذات الأثر الملموس — بقدرة الله — في توجيه السلوك الإنساني قبل أن يكون للمسألة وضعها الحالي في علم النفس التحليلي بأربعة عشر قرناً من عمر للزمان .

المبالغة في الأمّارة واللوّامة دون المطمئنة :

عندما ندقق النظر في تسميات النفوس الثلاثة — نلاحظ أن الأمّارة بالسوء ، واللوامة — جاءتا بصيغة المبالغة — دون المطمئنة ، فإنها جاءت بصيغة إسم الفاعل .

أوليست ملاحظة جديرة بالتأمل ؟

* * *

وقد رأيت ـ والله أعلم ـ :

أن عمل النفسين ، الأمارة ، واللوامة ـ إنما هو عمل يتّسم بالتجدد والاستمرار :

فالأمارة من شأنها مداومة الدسّ والوسوسة لصاحبها ، لا تني عن ذلك ولا تتوقف عنه ـ بل إنها تبالغ في ذلك مبالغة تهدف منها إلى تحقيق هدف الإغواء في عاقبة الأمر ، بحيث يلقى صاحبها عاقبة ما جنت يداه ، ويندم حيث لا ينفع الندم .

فكان من المناسب أن ترد تسمية هذه النفس بصيغة المبالغة المفيدة للكثرة والتجدد والتنوع .

واللوامة أيضاً : تفيد كثرة وقوع اللوم وتجدده منها على صاحبها ، ومن هنا قد تكون محمودة أو مذمومة على حسب ما تلام عليه . .

وهذه النفس في حركة نشاط دائم ومتجدد ، لأنها تمثل قوة الضمير الحيّ اليقظ ، الذي لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا وكان له فيها رأي ، وله عليها متابعة ، حتى إن محاسبته تؤدي ببعض الناس إلى الاعتراف بالذنب ، والاستعداد للقصاص ، ولذلك اعتبرها المفسرون داخلة في عداد من ذكرهم الله تعالى في قوله :

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » **(١٦)** .

فإذا انتقلنا إلى النفس المطمئنة : وجدناها تتصف بوصف ثابت متمكن ، يرتكز على أسس عميقة من السكون النفسي وقوة الصلة بالله سبحانه وتعالى .

---

(١٦) سورة النحل، آية (١١٠)

وليس في هذا الوصف الثابت تقلب في الهوى ، ولا تغير في العقيدة ، ولا اضطراب في السلوك ، ولا شذوذ في الرأي ، ولا خروج عن الجماعة .

من هنا كان التناسب بين هذه المعاني جميعها — وبين أن يأتي الوصف الثابت للنفس المطمئنة بصيغة اسم الفاعل — دون صيغة المبالغة .

مُقَارَنَة بَيْنَ الأَمَّارة والمطمئِنَّة :

نعرض الآن لقضية مهمة ونافعة ، في مجال المقارنة بين النفس الأمارة والنفس المطمئنة . وزاوية المقارنة بينهما هي :

(من المعلوم أن صاحب النفس الأمارة يجاهد نفسه ، ويغالب هواها ، ويبذل الجهد تلو الجهد في كفّ شرّها والحدّ من طغيانها ، وهو في ذلك يكابد مشقات جمة ويواجه صعوبات كثيرة . .

أما صاحب النفس المطمئنة فإنه قد استراح من هذا كله :

استراح من عناء المجاهدة والمكابدة لأهواء النفس . .

فكيف تكون هذه النفس المطمئنة ، أعلى مقاماً وأسمى مكاناً من النفس الأمارة بالسوء ؟ . . مع أن الأولى ، أي الأمارة — تجلب لصاحبها المشقات والمجاهدات التي فيها زيادة مثوبته عند الله — ومع أن الثانية تجلبُ له الراحة والسلامة والعافية ؟) .

هذه هي نقطة المقارنة الأساسية .

ولا نستطيع أن نغفل الردّ البليغ الذي أورده العلامة ابن القيم على هذه المسألة الدقيقة . . فهو يقول :

(في الزمن الذي يشتغل هذا بنفسه ، ومحاربة هواه وطبعه . .

يكون صاحب النفس المطمئنة قد قطع مراحل من سيره ، وفاز بقُرب صاحب المنازعة والمحاربة . .

قالوا :

وهذا كما لو كان رجلان مسافرين في طريق ، فطلع على أحدهما قاطع اشتغل بدفعه عن نفسه ومحاربته ليتمكن من سيره — والآخر سائر لم يعرض له قاطع بل هو على جادة سيره ، فإن هذا يقطع من المسافة أكثر مما يقطع الأول ، ويقرب إلى الغاية أكثر من قربه .

قالوا :

وأيضاً فإن للقلب قوة يسير بها ؛ فإذا صرف تلك القوة في دفع العوارض والدواعي القاطعة له عن السير — اشتغل قلبه بدفعها عن السير في زمن المدافعة .

قالوا :

ولأن المقصود بالقصد الأول إنما هو السير إلى الله — والاشتغال بدفع العوارض مقصود لغيره ، فاشتغال بالمقصود لنفسه أولى وأفضل من الاشتغال بالوسيلة .

قالوا :

وأيضاً فالعوارض المانعة للقلب من سيره هي من باب المرض .

واجتماع القلب على الله وطمأنينته به وسكونه إليه بلا منازع ولا جاذب ولا معارض — هو صحته وحياته ونعيمه .

فكيف يكون القلب الذي يعرض له مرض وهو مشغول بدوائه — أفضل من القلب الذي لا داء به ولا علة ؟

قالوا :

وأيضاً فهذه الدواعي والميول والإرادات التي في القلب تقتضي جذبه وتعويقه عن وجه سيره .

وما فيه من داعي المحبة والإيمان يقتضي جذبه عن طريقها .

فتتعارض الجواذب ، فإن لم توقفه عوقته ولا بد .

فأين السير بلا معوق ، من السير مع المعوق ؟

قالوا :

وأيضاً فإن الذي يسيّر العبد بإذن ربه إنما هو همّته .

والهمة إذا علت وارتفعت لم تلحقها القواطع والآفات ، كالطائر إذا علا وارتفع في الجو – فات الرماة ، ولم يلحقه الحصا ولا البنادق ولا السهام ، وإنما تدرك هذه الأشياء الطائر إذا لم يكن عالياً . فكذلك الهمة العالية قد فاتت الجوارح والكواسر ، وإنما تلحق الآفات والدواعي ، والإرادات : الهمة النازلة ، فأما إذا علت فلا تلحقها الآفات .

قالوا :

وأيضاً فالحسّ والوجود شاهدان بأن قلب المحبّ متى خلا من غير المحبوب – واجتمعت شؤونه كلها على محبوبه ولم يبق فيه التفات إلى غيره – كان أكمل محبة من القلب الملتفت إلى الرقباء المهتمّ بمحاربتهم ومدافعتهم والهرب منهم والتواري عنهم .

قالوا :

فكم بين محبّ يجتاز على الرقباء فيطوقون من هيبته وخشيته ، ولا يرفع أحدٌ منهم رأسه إليه – وبين محبٍّ إذا اجتاز بالرقباء هاشوا عليه كالزنابير أو كالكلاب . . فاشتغل بدفعهم وحرابهم أو جدّ في الهرب منهم – فكيف يسوّى هذا بهذا ، أم كيف يفضل عليه مع هذا التباين ؟

قالوا :

وأيضاً فالمحبة الخالصة الصادقة حقيقتها أنها نار تحرق من القلب ،

ما سوى مراد المحبوب ، وإذا احترق ما سوى مراده عدم وذهب آثره .
فإذا بقي في القلب شيء سوى مراده لم تكن المحبة تامة ولا صادقة ، بل هي محبة مشوبة بغيرها ، فالمحب الصادق ليس في قلبه سوى مراد محبوبه حتى ينازعه ويدافعه ، والآخر في قلبه بقية لغير المحبوب فهو جاهد على إخراجها وإعدامها) (١٧) .



(١٧) الامام ابن القيم (شمس الدين محمد بن أبى بكر) : طـريق الهجرتين وباب السعادتين ص٢٢٨ الناشر : المطبعة السلفية ومكتبتهـا بمصر ط ٢ (١٣٩٤ هـ)

الفصل الرابع

أهداف القرآن الكريم في النفس البشرية

١ – تمحيص النفس وتطهيرها بالابتلاء والاختبار .

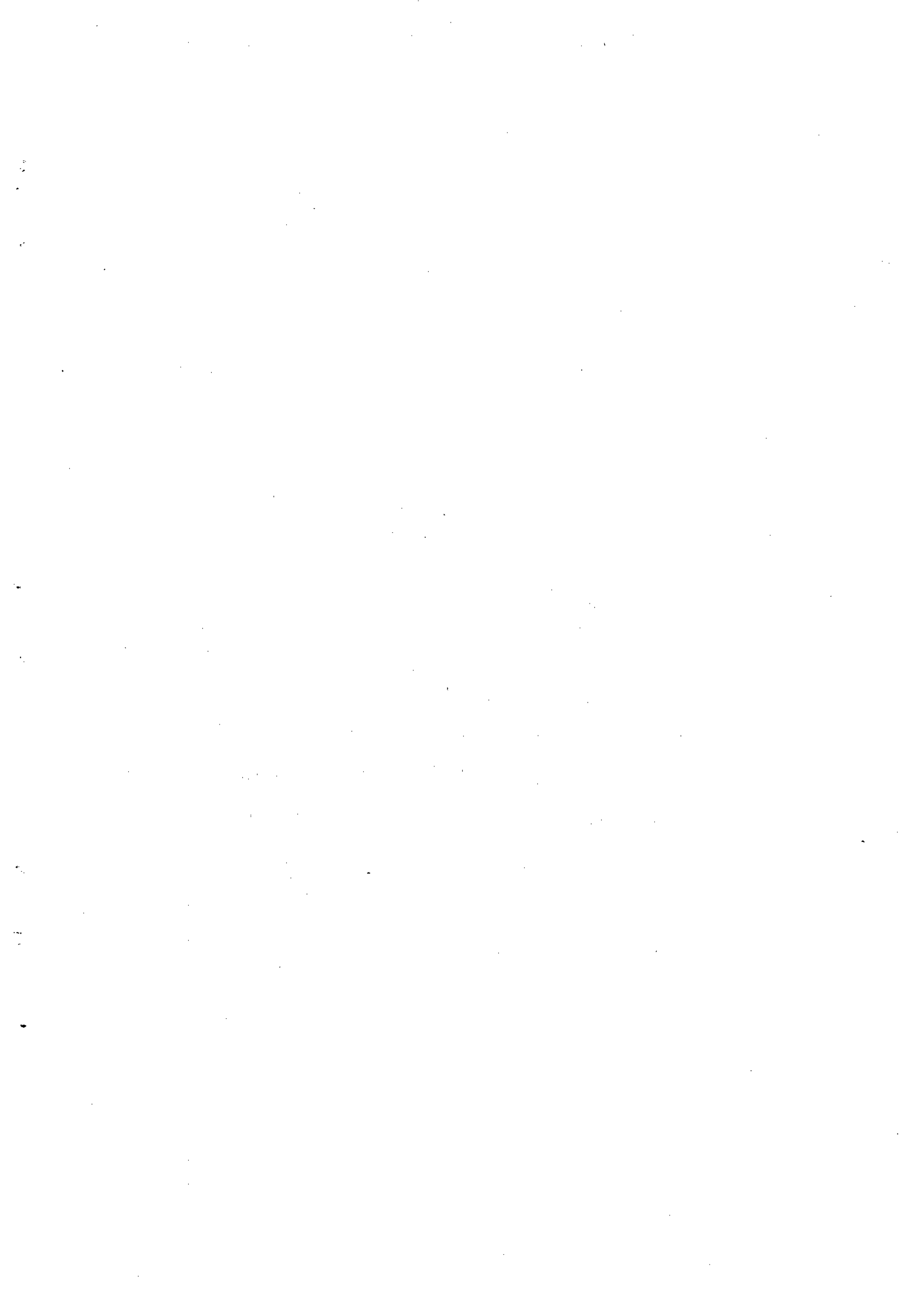
٢ – وضع النفس في موضعها دون مبالغة في مدحها أو قدحها .

٣ – تدريبها على اكتساب الكمالات وتحصيل محاسن العادات .

٤ – حفزها إلى الطاعة بالترغيب ، ردّها عن المعصية بالترهيب .

٥ – ربط النفس بخالقها سبحانه بتمجيده وتحميده وتسبيحه وتقديسه .

والحمد لله أولا وآخراً . .



أهداف القرآن الكبرى في النفس البشرية

أولا : ــ تمحيص النفس وتطهيرها بالابتلاء والاختبار :

أراد الله العلي القدير للنفس البشرية أن تعيش في دار بلاء واختبار ، وأن تعاني مرارة الصبر على الشدائد والآلام ، وأن تقاسِيَ من اللأواء والبأساء ما يردّها إلى حظيرة الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء ، والشكر على النعماء .

أراد الله العلي القدير للنفس البشرية أن تصهرها نيران المحن ، كما يُصهر الذهب الابريز على النار المتأججة ؛ فيزداد إشراقه ، ويتألق بريقه ، ويصفو من الأوشاب والأخلاط معدنه ، ويصبح نقياً صافياً متلألئاً مشرقاً : فيبدو فتنة للناظرين .

أراد الله العلي القدير للنفس البشرية أن تعاني حلو الحياة ومرها ، وخيرها وشرها ، وأن يكون لها في تلك المعاناة تمحيص وتطهير وتصفية

وتنقية . . لكي تقبل على ربها سبحانه وقد تهيأت للقائه بالإخبات والتوبة ، وأقلعت بذلك ومن قبل ذلك عن كل معصية أو حوْبة .

ولم يجعل الله سبحانه وتعالى هذا الابتلاء موجهاً إلى نفس دون نفس ، ولم ينقذ منه أمة هي أربى من أمة — بل جعله عاماً في كل النفوس الإنسانية على السواء .

بدأ به أبانا آدم عليه السلام وزوجته حواء ، حين أهبطهما من الجنة إلى أرض المكابدة والابتلاء ، بعد أن أزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه .

ثم كان لكل نبي كريم من أنبياء الله تعالى نصيب من الابتلاء والاختبار : إبراهيم عليه السلام ألقي في النار بلا رحمة لولا أن تداركته رحمة الله ، ويوسف عليه السلام أوذي من إخوته ، وبيع بثمن بخس دراهم معدودات ، وتعرض للفتنة والابتلاء ، وطرح في السجن ومكث فيه بضع سنين ! !

وأيوب عليه السلام ، قد ابتلي بالمرض ، ومسّه الضرّ . .

وعيسى عليه السلام ، قد تعرض لاضطهاد اليهود وتعذيبهم . .

وخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم :

قوبل بالتكذيب والتعذيب والسخرية ، واضطهده أقرب المقربين إليه ، فما فتّ ذلك في عضده ، ولا أثر ذلك في نفسه ، بل مضى يدعو إلى الله تعالى مستسهلا كل صعب ، مستعذباً كل عذاب ، حتى نصره الله ومكّن له ولدينه في الأرض .

هذا هو قانون النصر والجزاء في معركة الجهاد والابتلاء :

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (١) .

. وإليكم هذا النموذج الفذّ للصبر والمصابرة في ذات الله ، أملا فيما عند الله ، وما عند الله خير وأبقى :

بعد غزوة بدر ، أسر المشركون خُبيباً الأنصاري على غرة منه . وجاءه أبو سفيانَ يخيّره بين الموت – أو الإيمان باللات والعزّى !

قال خبيب :

« ما أحبّ أن أرجع عن الإسلام ولو أن لي ما في الأرض جميعاً » .

قال أبو سفيان « لنقتلنك » فقال خُبيب :

(والله لا أرجع عن الحق أبدا – وإنّ قتلي في الله لقليل) .

ثم رُبط رضي الله عنه بسارية ، وتقدم إليه أربعون شاباً من أبناء قتلى المشركين في بدر ، يهبرون لحمه بسيوفهم ورماحهم وهو ثابت الجنان في هذا الموت البطيء . ويقول :

إلى الله أشكو كربتي ثم غربتي ... وما فعل الأعداء بي عند مصرعي

وما بي حذار الموت ، إني لميّت ... ولكن حذارى جحم نار ملفّع

فلست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله مصرعي

ولست بمُبدٍ للعدو تخشعاً ... ولا جزعاً ، إني إلى الله مرجعي

(١) سورة آل عمران (١٨٦)

ثانيا : من أهداف القرآن الكبرى فى النفس البشرية :

وضع النفس فى موضعها ، دون مبالغة فى مدحها أو انقاص من قدرها :

لا شك أن الإسلام دين الوسط المحمود .

وهو بهذه المثابة يحقق سمة كبرى من سمات الفطرة الإنسانية ، لأن النفس إذا خرجت عن فطرتها تشوه جمالها ، وفشا قبحها ، واختلت المقاييس لديها . ومن هنا كانت وصايا القرآن الحكيم بعدم التزكية للنفس :

« فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ » (٢) .

«لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٣) .

ونحن أمام اتجاهين في النظر إلى النفس كلاهما مذموم :

١ ـ الاتجاه الاول : الافراط فى مدح النفس :

بالغ الفلاسفة عموماً في إعظام النفس ، ورفعها فوق قدرها ، واعتبروا الإنسان سيد الكون ، وسيد نفسه ، ولا سلطان لأحد عليه ، وهي نظرة كافرة فاجرة ، لا ترقب رب الكون ولا تخشى سطوته ولا تتطامن لعزته وجلاله .

٢ ـ الاتجاه الثانى : التفريط فى قدر النفس :

وهو اتجاه المتصوفة الذين غالوا في احتقار النفس ، وسلبوها كل قيمة لها في الحياة وفي الموت ، وخرجوا بعبارات أطلقوها ، وشعارات رفعوها : يستهدفون من وراء ذلك طرح الشواغل ، وترك الأعمال ، والتفرغ للتقرب إلى ساداتهم وتقديم فروض الولاء. « **ألا ساء ما يزرون !** »

---

(٢) سورة النجم (٣٢) (٣) سورة آل عمران (١٨٨)

ثالثا : من أهداف القرآن الكبرى فى النفس البشرية :

تدريبها على اكتساب الكمالات ، وتحصيل محاسن العادات ومكارم الأخلاق :

وذلك الهدف القرآني العظيم يستهدف إصلاح النفس والسمو بها لتكون محققة للتعاون الوثيق والتعامل الصحيح مع غيرها من النفوس ، فالدين المعاملة . كما أن النفس المؤمنة ينبغي أن تكون قدوة لغيرها في جميع أنواع التعامل الإنساني .

وقد رأينا أن الله تعالى قد أثنى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم — لم يُثْن عليه لعظم جاهه وقوة سلطانه ، ولا لكثرة ماله أو وفرة ضياعه ، وإنما أثنى عليه القرآن ثناءً عطراً لما تميز به من الفضائل العظيمة والأخلاق القويمة :

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » (٤) .

« وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ » (٥) .

« وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ » (٦)

هذه الجوانب المختلفة من المديح للذات النبوية في القرآن الكريم يجمعها خيط خلقي واحد ، هو الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الحاكم وصححه :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

على أن هذا الهدف القرآني في ترقية النفس الإنسانية بتدريبها على محاسن العادات ومكارم الأخلاق ليس غاية في ذاته — وإنما الغاية هي ربط

---

(٤) سورة القلم (٤) (٥) سورة آل عمران (١٥٩)

(٦) سورة الأنبياء (١٠٧)

هذه النفس بخالقها سبحانه ، وإخضاعها في كل أمورها له ، وهذا واضح من قوله تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » (٦) .

« وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا » (٧) .

رابعا : من أهداف القرآن الكبرى في النفس الانسانية :

حفز النفس الى الطاعة بالترغيب وردها عن المعصية بالترهيب

وفي ذلك تفهم عميق لطبيعة النفس البشرية ، التي لا تنبعث إلى عمل إلا بدافع قوي إليه ، وباعث شديد عليه .

وزعم بعض الصوفية فيما زعموه بغير دليل أن العبادة أنواع ثلاثة :

عبادة التجار : الذين يعبدون الله طمعاً في الجنة .

وعبادة العبيد : الذين يعبدون الله خوفاً من النار .

وعبادة الأحرار : الذين يعبدون الله لا خوفاً ولا طمعاً .

وهم بهذا التقسيم المزركش المنمّق – كعادتهم في كل ما يكتبون – يدخلون على الدين ما ليس منه ، ويسلبون العبادة جوهرها وروحها ، ويخالفون مخالفة صريحة كل ما ورد من النصوص الثابتة في الدوافع على الطاعة والزواجر على المعصية .

ومن أهم هذه النصوص قوله تعالى :

« يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا » (٨) .

---

(٦) سورة غافر (٦٠) (٧) سورة النساء (١٧٢)
(٨) سورة السجدة (١٦)

وحديث « سليم الأنصاري » ، حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

– أما إني أسأل الله الجنة ، واستعيذ به من النار ، لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ !

– فقال صلوات الله وسلامه عليه :

حولها ندندن ! (أي حول الجنة ومن أجلها ندعو ونتعبد) .

فبأي حق ، وبأي دليل ، يظل أولئك المخرفون يشوهون حقائق الدين ، ويبتكرون من عند أنفسهم ما يزوّرون به على المسلمين نصوص دينهم ويحملونهم حملا على الخروج عن مذهب أهل السنة والجماعة ؟ (٩) .

خامسا : من أهداف القرآن الكبرى في النفس البشرية : ربط النفس بخالقها سبحانه عن طريق تمجيده وتسبيحه وتقديسه وتحميده .

لقد انتهت آراء علماء النفس الحديث ، في آخر ما توصلوا إليه وألّفوا فيه وهو علم النفس الإنساني (HUMANISTIC PSYCHOLOGY)

إلا أن العودة إلى الإيمان هي السبيل الأمثل والأفضل لجلب الاستقرار والسكينة والأمان إلى النفس الإنسانية.

وهذه الدعوة هي لبّ لباب علم النفس الإسلامي .

وإن تكن هذه العودة إلى الإيمان جديدة لدى الغربيين – فإنها ليست بجديدة علينا نحن الداعين إلى تطبيق المناهج الإسلامية في الاعتقاد

---

(٩) راجع (مدارج السالكين) للامام ابن القيم ، فقد أجاد وأفاد وشفى الغليل بما أورده في الجزء الثاني من ص ٧٥ – ٨١

وفي كل مناحي الحياة العامة والخاصة على مستوى الفرد والدولة، فقد تضافرت الأدلة على أن شفاء النفس لا يكون إلا من صيدلية مولاها :

« وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ » (١٠) .

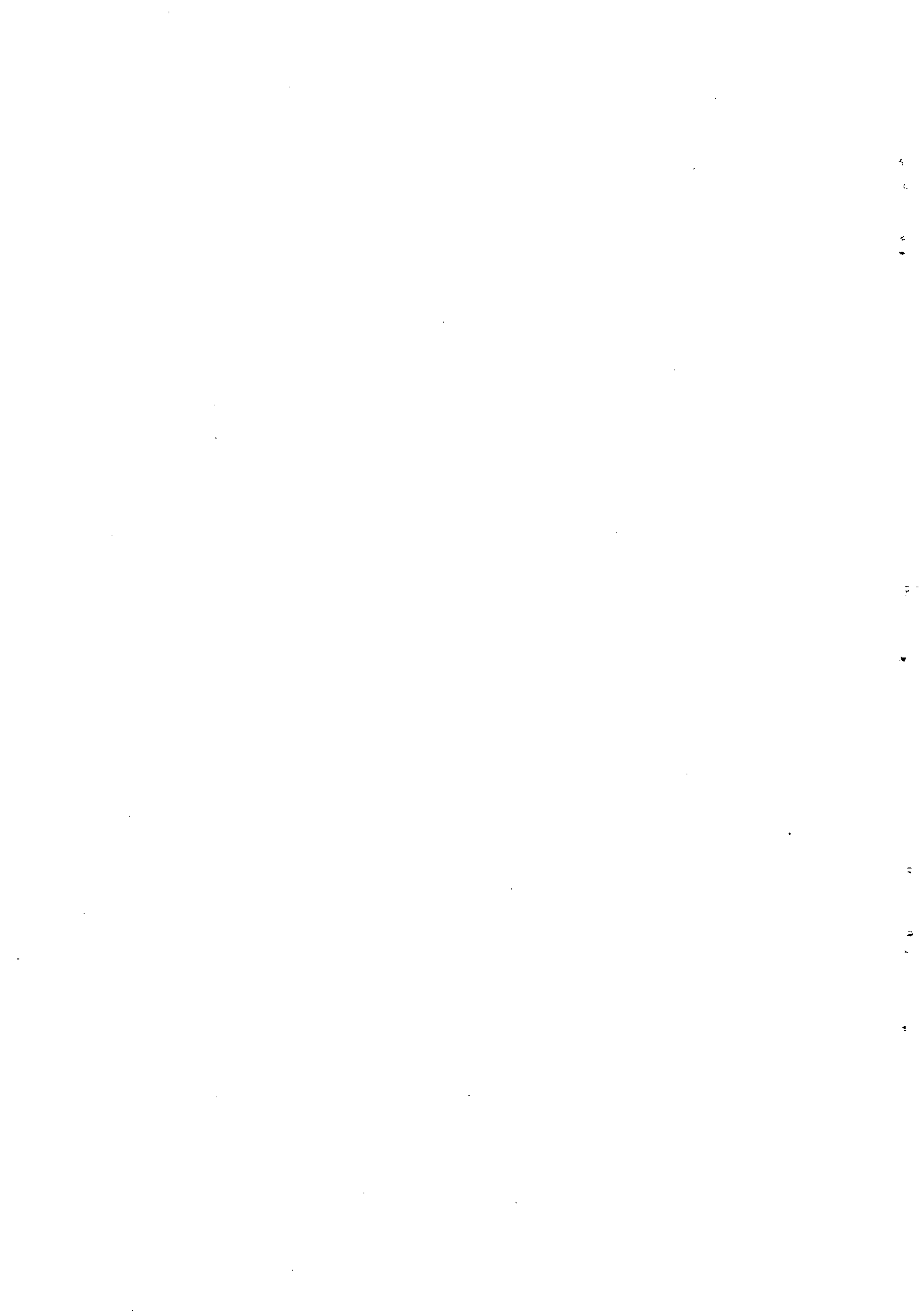
ويوم يكون منهجنا في الحياة قائماً على حسن الصلة بالله ــ فذلك هو الطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة .

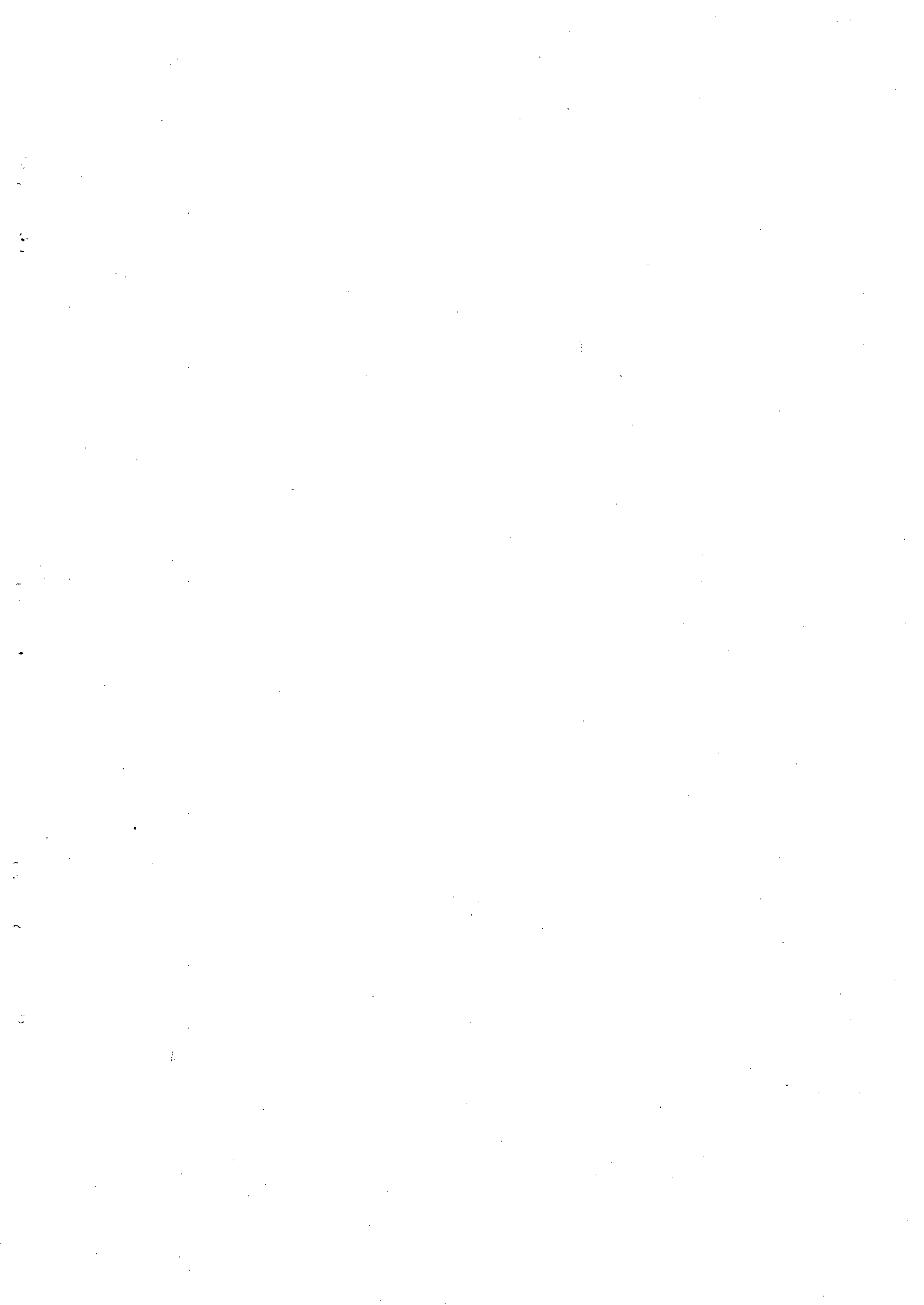
« ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ » (١١) .

والحمد لله أولا وآخراً .

---

(١٠) سورة الاعراف (٢٠٥)
(١١) سورة الرعد (٢٨)





أهم المراجع

* القرآن الكريم .
* كتب السنة الصحاح .
* كتب التفسير ، ومن أهمها :
- الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي – (الناشر : دار إحياء التراث العربي بلبنان) .
- فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير : للإمام الشوكاني (الناشر : مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٨٣ هـ) .
- تفسير القرآن العظيم للحافظ "ابن كثير" القرشي الدمشقي : (الناشر : دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) دون تاريخ .
- في ظلال القرآن : للشهيد سيد قطب .

(كتب متنوعة) :

* الدكتور عبد الكريم عثمان : (الدراسات النفسية عند المسلمين) .
* الدكتور يوسف القرضاوي : (العبادات في الإسلام) .
* الدكتور حسن الشرقاوي : (علم النفس الإسلامي) .
* ابن قيم الجوزية : (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) : الناشر : مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر (١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م) .

* ابن قيم الجوزية : (طريق الهجرتين وباب السعادتين) الناشر : محبّ الدين الخطيب (المطبعة السلفية بالقاهرة) ط ١٣٩٤ هـ) .

* ابن قيم الجوزية : (مدارج السالكين) (المطبعة السلفية بالقاهرة) ط (١٣٩٤ هـ)

* الدكتور أحمد الشرباصي : (من أدب القرآن) : الناشر : دار المعارف بمصر (١٩٧٦ م) .

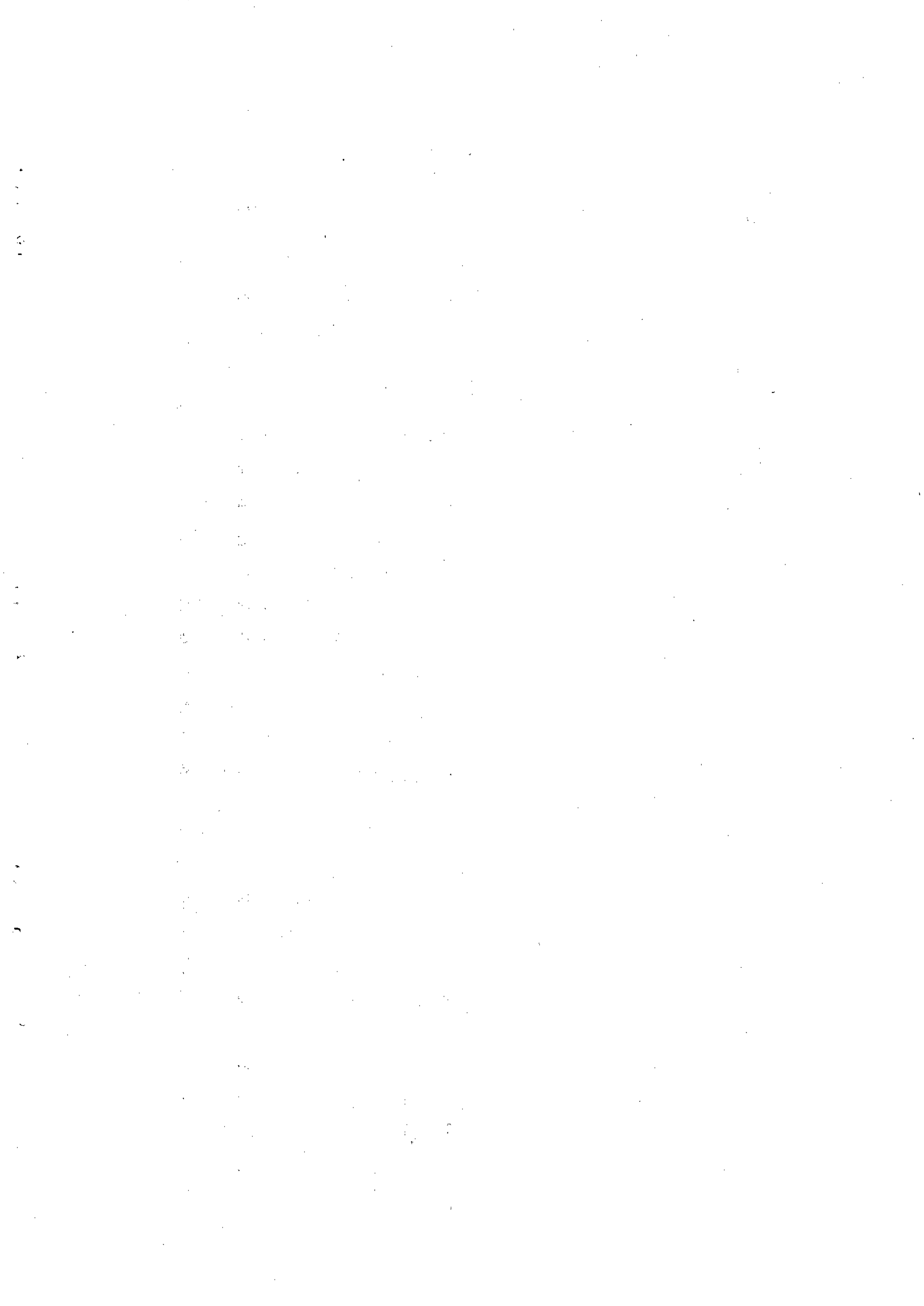
* عباس محمود العقاد (الإنسان في القرآن الكريم) : الناشر : دار الإسلام بالقاهرة (دون تاريخ) .

* ابن عبد البر النمري القرطبي : جامع بيان العلم وفضله (الناشر : دار الكتب العلمية) بيروت . لبنان . (١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م) .



الفهرست

الموضـــــوع	الصفحة
بين يدى البحث	٩
الفصـــل الأول :	
مع النفس فى كتاب الله	٢٥
مفهوم النفس فى القرآن الكريم	٢٧
الفصـل الثـاني :	
الخصائص العامة لعلم النفس الاسلامى	٣١
هل هناك علم نفس اسلامى	٣٣
الخصائص العامة لعلم النفس الاسلامى	٣٤
الفصـل الثالث :	
نماذج النفس الانسانية في القرآن الكريم	٤٥
النفس الامارة بالســوء	٤٧
شـيوع النفس الامارة	٥٢
الاستعاذة بالله من النفس الامارة	٥٨
أوصـاف النفس اللوامة	٦١
هل النفس اللوامة هي الملهمة	٦٥
لماذا اقترنت النفس اللوامة بيوم القيامة	٦٧
النفس المطمئنة	٧٣
النفس المطمئنة ما هى ؟	٧٤
النفس المطمئنة من اين تستمد اطمئنانها	٧٨
دراسة مقارنة للنفوس الثلاثة فى القرآن الكريم	٨٣
الرد على من قال أن النفوس خمسة	٨٥
رأى جديد فى النفوس الثلاثة	٨٨
المبالغة فى الامارة واللوامة دون المطمئنة	٩١
مقارنة بين الامارة والمطمئنة	٩٣
الفصـل الـرابع :	
أهداف القرآن الكريم فى النفس البشرية	٩٧
أهداف القرآن الكبرى فى النفس البشرية	٩٩
اهـم المراجـــع	١٠٩



إصدارات إدارة النشر بتهامة

الكتاب العربي السعودي

صدر منها:

	الكتاب	المؤلف
*	الجبل الذي صار سهلاً	المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
*	من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
*	عهد الصبا في البادية	ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
*	التنمية قضية	دكتور محمود محمد سفر
*	قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	دكتور سليمان محمد الغنام
*	الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
*	الدوامة (قصة طويلة)	دكتور عصام خوقير
*	غداً أنسى (قصة طويلة)	دكتورة أمل محمد شطا
*	موضوعات اقتصادية معاصرة	دكتور علي بن طلال الجهني
*	ازمة الطاقة إلى أين؟	دكتور عبد العزيز حسين الصويغ
*	نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
*	إلى ابنتي شيرين	المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
*	رفات عقل	المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
*	شرح قصيدة البردة (دراسة وتحقيق)	دكتور محمود حسن زيني
*	عواطف انسانية (ديوان شعر)	دكتورة مريم البغدادي
*	تاريخ عمارة المسجد الحرام	المرحوم الشيخ حسين باسلامة
*	وقفة	دكتور عبد الله حسين باسلامة
*	خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
*	أفكار بلا زمن	الأستاذ عبد الله الحصين
*	علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
*	الابحار في ليل الشجن [ديوان شعر]	الاستاذ محمد الفهد العيسى
*	طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
*	التنمية وجهاً لوجه	دكتور غازي القصيبي

* الحضارة تحدٍّ — دكتور محمود محمد سفر
* عبير الذكريات (ديوان شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
* لحظة ضعف — الأستاذ فؤاد صادق مفتي
* الرجولة عماد الخلق الفاضل — المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* ثمرات قلم — الأستاذ محمد حسين زيدان
* بائع التبغ — الأستاذ حمزة بوقري
* اعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة — الاستاذ محمد علي مغربي
* النجم الفريد — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* مكانك تحمدي — الأستاذ أحمد محمد جمال
* قال وقلت — الأستاذ أحمد السباعي
* نبض.. — الأستاذ عبد الله جفري
* نبت الأرض — الدكتورة فاتنة أمين شاكر

تحت الطبع:

* السعد وعد (مسرحية) — الدكتور عصام محمد علي خوقير
* قصص من سومرست موم — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* عن هذا وذاك — دكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* قصص من طاغور — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* الأمثال الشعبية في مدن الحجاز — الأستاذ أحمد السباعي
* افكار تربوية — دكتور ابراهيم عباس نتو
* تأملات في دروب الحق والباطل — الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
* خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبد الله بوقس
* نقر العصافير — المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* السنيورا (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
* أيامي.. — الأستاذ أحمد السباعي

* التاريخ العربي وبدايته — الأستاذ أمين مدني
* ماما زبيدة [مجموعة قصصية] — الأستاذ عزيز ضياء
* مدارسنا والتربية — الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
* دوائر في دفتر الزمن «مجموعة قصصية» — الأستاذ سباعي عثمان
* جسور الى القمة — الأستاذ عزيز ضيـــاء
* قال بيدبا — الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
* هكذا علمني وردزورث — الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* عام ١٩٨٤ جورج أورويل [ترجمة] — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* مشواري مع الكلمة — الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
* وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* لن تلحد — الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها — فضيلة الشيخ حسين باسلامة
* رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر) — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* الإسلام في نظر أعلام الغرب — الشيخ حسين باسلامة
* فلسفة المجانين — الأستاذ سعد البواردي
* الأصداف (ديوان شعر) — المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* عن هذا وذاك — دكتور غازي القصيبي
* الدمعات الخمس (ديوان شعر) — المرحوم الاستاذ أحمد قنديل
* العقاد — الاستاذ أحمد عبدالغفور عطار

الكتاب الجامعي

صدر منها :

الكتاب	المؤلف
* الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	دكتور مدني عبد القادر علاقي
* الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق [باللغة الانجليزية]	الدكتور : فؤاد زهران الدكتور : عدنان جمجوم الدكتور : محمد عيد
* النمو من الطفولة إلى المراهقة	دكتور محمد جميل منصور دكتور فاروق سيد عبد السلام
* الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب ايطاليا	دكتور عبد المنعم رسلان
* النفط العربي وصناعة تكريره	دكتور أحمد رمضان شقلية
* علاقة الآباء بالأبناء [دراسة فقهية]	دكتوره سعاد ابراهيم صالح
* مبادئ القانون لرجال الأعمال في المملكة العربية السعودية	دكتور محمد ابراهيم أبو العينين
* الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية	الأستاذ هاشم عبده هاشم

تحت الطبع :

الكتاب	المؤلف
* الملامح الجغرافية لدروب الحج	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
* مشكلات الطفولة	دكتور محمد جميل منصور
* هندسة النظام الكوني في القرآن	دكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر

* الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحي
* النظرية النسبية — دكتور عبد الرحمن فكري
* الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوربية) — دكتور عبد الوهاب علي الحكمي
* شعراء التروبادور — دكتورة مريم البغدادي
* الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد



صدر منها :

* حارس الفندق القديم — الأستاذ صالح ابراهيم
* دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — دكتور محمود الشهابي
* التخلف الإملائي — الأستاذة نوال قاضي
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة العربية)
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)
* تسالـــي — دكتور حسن يوسف نصيف

تحت الطبع :

* مجلة الأحكام الشرعية — للمرحوم الشيخ أحمد بن عبد الله قاري

دراسة وتحقيق :

د. عبد الوهاب أبو سلميان   د. محمد ابراهيم أحمد علي

* النفس الانسانية في القرآن — الأستاذ ابراهيم سرسيق
* الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام. — الأستاذ أمين ساعاتي
* خطوط وكلمات [رسوم كاريكاتورية] — الأستاذ علي الخرجي
* القرآن ودنيا الانسان — الأستاذ صلاح البكري
* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — دكتور حسن محمد باجودة
* الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
* الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* ألوان — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* عطــر وموسيقــى — الأستاذ محمد اسماعيل جوهرجي
* اضواء على نظام الأسرة في الاسلام — دكتوره سعاد ابراهيم صالح
* وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — دكتور جميل حرب محمود حسين
* نقاد من الغرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* ماذا تعرف عن الأمراض — دكتور اسماعيل الهلباوي
* جهاز الكلية الصناعية — دكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر

رسائل جامعية

تحت الطبع:

* العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
* القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
* الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
* تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
* نظام الحسبة في العراق حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
* افتراءات فليب حتى، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي. — الأستاذ عبدالكريم على باز

كتاب الناشئين

وطني الحبيب

[حلقات] يكتبها الأستاذ يعقوب إسحاق

صدر منها :

جدة القديمة .

تحت الطبع :

جدة الحديثة .

حكايات للأطفال يكتبها الأستاذ عزيز ضياء

قصص للأطفال تكتبها الأستاذة فريدة فارسي

كتاب الأطفال

لكل حيوان قصة – للاستاذ يعقوب اسحاق

صدر منها :

- **القرد ..**
- **الضب**
- **الثعلب**
- **الكلب**
- **الغراب**
- **الأرنب**
- **السلحفاة**
- **الجمل**
- **الاسد**
- **البغل**
- **الفار ..**
- **الحمار الاهلى**

تحت الطبع :

* **الذئب**
* **الحمار الوحشى**
* **الفراشة**
* **الخروف**
* **الببغاء**
* **الوعل**
* **الجاموس**
* **الحمامة**
* **الفرس**
* **الدجاج**
* **البط**
* **الغزال**

دار الأصفهاني للطباعة بجدة